A.U.B. LIBRARY

833
G59LA

آلام ڤرتر

للشاعر الالماني الكبير

جوته

ترجمة

نخله ورد

79077

مطبعة العلوم والآداب لصاحبها خوران بشارة

cat. June, 52

ابتداء فرانكه يوم الاثنين ١٩/١٢/١٩٥٥

نقلت عن ترجمة (دويون) الفرنسية وقوبلت على ترجمات اخرى

حقوق الطبع محفوظة للمعرب

مقدمة

القدر المبدع

يبدو لنا جوته ، خلال مراحل حياته ومواقفها الحاسمة ، ومن استقراء العناصر التي كونت شاعريته ومواهبه الفكرية ، وكأن العناية الالهية توخت ان تهب الامة الالمانية في شخصه ، منحة انسانية عظيمة نسجت خيوطها في اناة وصبر ، خلال جيلين ، وانبثقت بولادة الشاعر يوم ٢٨ آب سنة ١٧٤٩ ، لتحقق كلمة القدر المسطور .

وهي عوامل العبقرية الموروثة والنشأة والبيئة ، والبصيرة التي اتاحت لجوته فيادة كل هذه القوى نحو الانسجام والابداع المنشود .

وقد وصف جوته وهو بعد حدث صغير وضع الكواكب والآلهة ازاء هذه الولادة ، وكيف كانت ترصدها بعين المحبة والرضى : « كانت الشمس تتوهج في ذروتها العليا ، وجوبتير وڤينوس يتطلعان بنظرات ولاء وأنس . اما مارس فقد ظل غير مكترث ، وكان القمر بدرا مشرقا . »

ان للامهات في الغالب شأنا عظيما في حياة الشعراء . وكان من لطف العناية بجوته ان هيأت له اما ، وما يعمر قلبها الحنان وفكرها الخيال الخصب الطليق فكانت تضم صغيرها وتقص عليه الاساطير وتبدع له

الحكايات على نسبة مداركه . وكثيرا ما كانت تقطع قصتها وتمضي لبعض شأنها فيذهب جوته الى جدته ويحدثها بالنهاية التي يتخيلها للقصة فتقص جدته ما سمعت منه على امه التي تنهي القصة بالشكل الذي اراده جوته الصغير ، ولم يكن قد جاوز الخامسة من عمره . وكان لهذا اثره العجيب في انماء ملكة خياله .

كما تأثر من امه بطبيعتها المتفائلة المرحة وقد قالت مرة : « لو كنت ملكة لفعلت كيوليوس قيصر ، ما قبلت في بلاطي غير الوجوه المستبشرة الضاحكة . »

واخذ جوته عن ابيه ، وكان مستشارا حقوقيا ، حب النظام والعمل ودراسة اللغات وعلى رأسها اللاتينية ، ولم تكن لغة ميتة في ذلك الحين ، ولم يكد يتجاوز الثانية عشرة حتى كان ينظم الشعر بسهولة ويسر في اللغات : الالمانية ، الفرنسية ، الانكليزية والايطالية .

ويذكر لنا جوته ان والده كان قد احضر من اسفاره الكثيرة الى بلاد الجنوب احجارا اثرية وتماثيل اثارت في قلبه حب شواطىء المتوسط بشمسها المتوهجة وسمائها الزرقاء الصافية . وكان لوالده مجموعة من الصور عن روما تمثل معالمها وساحاتها العامة وكاتدرائية سان بيير ، فكان يستمع الى شرح ابيه باهتمام ويتأملها معجبا مأخوذا .

وكان جده عمدة فرنكفورت فأعطى حفيده الصغير بطاقة دائمة لحضور التياتر ومشاهدة التمثيليات التي كانت تعرضها الفرق الفرنسية التي رافقت الجيش الفرنسي المحتل (حرب السنوات السبع)

جوته الحكيم العامل

لقد عرف جوته اكثر من اي انسان وشاعر فن الحياة . عاش كل دقيقة من حياته الطويلة ، واعطى كل شيء فيها وجعل لكل شيء، قدسيته وطابعه الانساني العميق وحقيقته الحية ، اذ جرده من سلطان التقاليد والاوهام والافكار الموروثة . وهذا ما يجعل من جوته الشاعر العالم ، فيلسوفا وحكيما بصيرا . لم تكن لجوته منظومات او مذاهب فلسفية معينة تتعرض لحل المشاكل والقضايا التي عالجتها الفلسفة ، ولكنه كان فيلسوفا بالمعنى الاصيل العميق ، فيلسوف الحياة وحكيمها البصير . وكان قوام حياته النيّرة ، صبوة اصيلة الى الحرية والتكامل البشري ، ينزع اليهما في تفاؤل واستبشار ، وفي جهد دائب مستمر . واننا لنحار اليوم عندما نستعرض الاعمال والمهام الخطيرة التي حققها في حياته ، فقد كان ، في دوقية ويمار ، وزير المعارف ، حامي ونصير الفنون الجميلة ، مدير المالية والمناجم ، والرئيس العامل المنظم لشئون التياتر ، يضع المسرحيات ويشرف على التمثيل وتوزيع الادوار ويعشق الممثلات ..

وهو بالاضافة الى كل هذه المهام ، يدرس وينقّب ويبحث في علم طبقات الارض والمستحاثات والالوان وعلم منافع الاعضاء ، ويجد متسعا من وقته لينظم الشعر ويشرب ويرقص ويتزحلق على الجليد ، (فينطلق ويطير فوق هضابه كالآلهة ، كما قالت امه) ، ومن ثم يكتب الرسائل وقد بعث منها الى مدام دي ستين ١٦٠٠ رسالة !

الشاعر الفنّان

وعدة جوته وآلته الرئيسية هذه الحساسية المرهفة العجيبة ، تصله بالحياة والطبيعة عن سبيل القلب والعين والاذن وغيرها من الحواس ، فلا يفوته حفيف ورقة تتلوى في غصن ولا رفة جناح ، او الاستمتاع بمشاهدة حشرة دقيقة تموج في عالمها الصغير . وقد تكون هذه الابيات ، من قصيدة نظمها سنة ١٧٧١ وعنوانها نشيد ايار ، اصدق ما يصور لنا جوته في حبه للحياة وتقديسه لها واستعداده لتقبل ملذاتها ونعمها بما يشبه نشوة المتعبّد :

« اي اشراق يغمر الطبيعة !امام عيني ،
لشد ما يتألق نور الشمس وتضحك المروج ،
الازاهير تتدفق زاهية من كل غصن ،
وآلاف الالحان تنطلق من الاحراج النضيرة ،
والفرح والغبطة يتفجران في كل صدر .
يا لجمال الارض ، يا لروعة الشمس ، يا للسعادة ، يا للفرح .
ايها الحب ، ايها الحب الجميل ،
الذهبي كغمامات الصباح على هذه الاعالي .
انت تبارك بفيضك الطبيعة ، وقد عاد شبابها ،
والارض الغضة توشيها بالازهار العبقة . »

حب جوته

مجال هذه المقدمة لا يتسع بالطبع لاشياء كثيرة تقال عن جوته ، ويبدو

لي ان اجمل ما يكتب مقدمة لڤرتر ، فصل عن حب جوته ، وان كان من المفضل ان نترك قراء (ڤرتر) على رفيف هذا الوهم اللذيذ الذي يصور لهم جوته وقد اغلق قلبه عن الحب بعد شرلوت ، وانتحر فعلا بانتحار بطله ڤرتر .

يتحدث مؤرخو الادب الالماني عن نزعة غريبة في حب جوته اسموها نزعة الفرار . فقد احب عشرات المرات قبل ان يتزوج كريستيان فيليبوس ، واحب مرات بعدها ، وكان في كل مرة يشعر فيها بخطر الزواج على عبقريته وشعره ، يولي بوجهه عن المعبود وينصرف .. الى حب جديد .

وهكذا نرى جوته في حبه ، كفراشة جميلة لاجنحتها الحريرية مناعة هائلة ضد الحريق . فاذا ما شعرت بقوة النار وخطرها ، رفت بأجنحتها اللطيفة لتأسى زمنا ، ثم تعاود غزو الحقول ، بطهر ملائكي .

فهذه فريدريك بريون التي لقيها جوته عندما كان في ستراسبورغ ، خلال نزهة له في غابات سانسهايم فأحبها وظفر بحبها لتوّه . ولكن حبها له اتخذ شكلا اليما فاجعا . ان الزهرة التي مستها اجنحة الفراشة هي التي احترقت هذه المرة .

كان جوته ينشدها في بدء حبه :

« بارك حبنا ايها القدر ،
وانت ايتها الفتاة التي تختلج في صدرها ،
العواطف التي تغمر قلبي ،

مدي لي يدك العزيزة ،
ولتكن الصلة التي توثق قلبينا ،
اطول عمرا من اكاليل الورود . »

ويتفق النقاد على ان اولى روائع جوته ، قطعة (لقاء ووداع) يصف فيها موعدا له مع فريدريك في احد الحقول ، تحت جنح الظلام :

« كان المساء يهدهد الارض ،
والليل يرخي سدوله برفق على سفوح الجبال ،
وتبدو السنديانة بوشاحها البخاري ، كمارد جبار ،
وتتطلع الظلمة من وراء الادغال ،
بمئات من عيونها السود ،
والقمر ينبثق خلال الضباب ،
فوق جبال من السحب المتراكمة ،
والرياح تعصف بأجنحتها اللطيفة ،
وتهمس في اذني الحانها الشجية ،
والليل ينبري لي بآلاف الاشباح المخيفة .
اية نار سرت في عروقي عندما رأيتك !
واي حب عصف في صدري !
لقد غمرتني نظراتك الحلوة بفيض من الفرح الهادىء ،
وتوهجت هالة وجهك الحبيب بلون وردي من نسيم الربيع .
وكان قلبي كله يرتعش في يدي .

الهي . اية نشوات تذوقتها على شفتيك !
ولكن وداعنا ، والهفي ، كان شقيا معذبا ،
فمشيتُ وظللتِ مطرقة تودعينني بنظرات ندية . »

وجوته يشير في قصيدته الى قبلات اقتطفها من شفتي فريدريك .

وكانت ابنة الاستاذ الذي علمه الرقص في ستراسبورغ قد ارتمت مرة ⑦ بين يديه وصرخت غيرة من مزاحمة شقيقتها : « لتكن ملعونة المرأة التي تلثمها بعدي . »

ولم تقل المسكينة ملعونات .. بصيغة الجمع .

وعندما اشتد السعير هجر جوته ، على عادته .

وقد طلب يد فريدريك كثيرون بعده ولكنها كانت ترفض باباء قائلة : « ان التي احبها جوته ، لا يمكن ان تكون لسواه . »

ومن المفارقات اللطيفة ان الشاعر الالماني رينولد لانز طلبها من ابيها بعد سفر جوته فأجابه : « شاعران ! لا ، هذا كثير . »

وعاشت فريدريك لدى شقيقة لها وانطفأت شعلة حبها بهدوء ودعة بعد ان عمرت ستين سنة . وكأن العناية الالهية لم ترد لها ان تفارق هذه الدنيا قبل ان تقرأ الفصل الذي خصها به جوته في الجزء الثاني من كتابه (شعر وحقيقة) فقضت مطمئنة الى مكانتها في قلب الشاعر الخالد .

ويرى قبر فريدريك بريون في ركن من مقبرة سانسهايم ، وقد حفر على شاهده الشاعر النمسوي لودفيج ايكارت ، هذا البيت : « شعاع قوي من شمس الشاعر هبط اليها فمنحها الخلود . »

(٣) ويعد حب جوته لماريان جانك من اروع وألطف قصص الحب في التاريخ، وكان شاعرنا قد بلغ الخامسة والستين من عمره ! ولابد لي من وقفة استعرض فيها ظروف هذا الحب العجيب .

نحن في مطلع سنة ١٨١٥ ، واوروبا التي دوختها حروب نابوليون فهدمت ممالكها وقوّضت عروشها، تنهض لاعادة بناء النظام القديم . ولكن جوته ، وقد رأينا إله الحرب يستقبل ولادته بغير اكتراث كان ينظر الى كل هذا بشيء من الزراية، ترى ماذا يريدون بمؤتمر فيينا هذا ؟ ان الوزراء ومحترفي السياسة يتناقشون ويختلفون على مصير الولايات الشرقية ويهتف جوته النبيل ، الحيادي ضد زمنه ونزعة عصره :

« لله ممالك الشرق ! وله ممالك الغرب !
وارض الجنوب والشمال تتكىء آمنة على صدره الهادىء . »

ان خياله الطليق ليسرح بعيدا ويطير الى الشرق « ليعب من نسماته الطهور الخليقة بالبطاركة » . انه ليهيم مع الحيام وحافظ ويشرب خمرا معتقة تنبت عناقيدها على ضفاف الفرات ودجلة ، ويصطخب فيها الحبب المذهّب ، في كئوس ترن كأجراس من الفضة .

ولم يكن جوته في حياته كلها وديعا انيسا مثله في هذه الفترة . ان في عينيه بريقا وطهرا ، وانه ليصبو الى الحب كما تهفو الى الغيث الاشجار الشامخة على رءوس الجبال :

« لقد بيضت شعرك السنون ايها الشيخ ،
ولكنك ستحب وتعشق ، فلا تقلق . »

853
P64 11

وقد جاءه هذا الحب صارخا لاهبا كريح تهب من الشرق .

ولماريان قصة . كانت في الخامسة عشرة من عمرها ، سمراء ، حلوة ، ذكية ، عندما جاءت مع امها لترقص على احد مسارح فرنكفورت . ويراها السيد ڤون ويلمير ، من اصحاب المصارف وصديق الشاعر ، فيرغب بانتشالها من هذا الوسط ويتفق مع امها على تبنيها لتعيش مع ابنته الصغيرة روزين . وتنمو الفتاة مع الايام وتكتمل انوثتها فتغدو فاتنة رائعة بصوتها الرخيم وذكائها المشرق وميلها الاصيل الى الفن والادب والشعر . وتتحول عاطفة الرعاية الابوية الى عشق تستجيب له ماريان ويهنأ به العاشقان في كنف الرخاء واليسر .

وكانت قد بلغت الثلاثين من عمرها عندما دعي جوته لقضاء ايام في قصر صديقه الصيفي قرب فرنكفورت . ولنسجل هنا صورة لجوته كما رسمتها ابنة ويلمير :

« اي رجل ! واية عواطف تهز كياني !

كنت اتوقع لقاء طاغية يبدي التجهم والقسوة فاكتشفت رجلا له روح طيبة متفتحة لكل الانطباعات . انه يفرض حبه بشكل صبياني ساذج ويحلو الوثوق به والاستسلام اليه كلية . لشد ما يشيع وجوده الايناس والود . لقد منحته العناية مواهب رائعة ينثرها بسماحة وجلال دون ان يظهر شيئا من الزهو والفخر لانه معبد لمثل هذه العبقرية . »

وتنقضي الايام والامسيات في هذا القصر الصيفي الجميل ، حلوة لطيفة

حالمة ، اشعـار واناشيد وموسيقى لموزار ورقص على الشرفة البهيـة التي تطل على نهر (المان) .

وفي هذا الجو السحري ينبثق الحب بعد نزهة مرحة في احد الكروم فينشدها جوته :

« وهكذا وجدتني انجذب الى شفتيك ،
على اجنحة ارجوانية كالفجر ،
يبارك حبنا الليل الازلي ، على ضياء النجوم . »

و :

« يعجب الناس لغمزات حبيبتي ،
ولكن الحبيب وحده يعرف ما تعني . »

الا ان السيد ويلمير خبير قديم لايفوته معنى هذه النظرات ، انه يدرك خطر هذا الكهل ذي الشعر الابيض ..

ولكن جوته لم يكن ليود بحال ان يعكر حياة صديقه ، فيدير الدفة ويودع اصدقاءه شاكرا ليحيـا بهدوء ذكريات حبه . الا انه يرجع اليهم في الصيف التالي ، ويتخذ حبه هـذه المرة شكلا عنيفا عاصفا :

« عيناك وشفتاك وصدرك غاية سعادتي وفرحي ،
فالى ان يحلو لله ان يجمع شملنا ،
تظل الشمس والقمر والعالم كله ، مبعث اشجاني ودموعي . »

ويقصد جوته لقضاء ايام في هيدلبرج ، فتحث ماريان صديقه ويلمير الى اللحاق به وتنظم له في الطريق ابياتا يقرؤها معجبا مأخوذا ، ايستطيع

الحب ان يحوّل هذه المرأة من ناظمة بسيطة الى شاعرة ملهمة ؟

« ما تعني هذه الرعشة تسري في اوصالي ؟
هل يحمل اليّ الشرق نبأ مفرحا ؟
ان حفيف اجنحته اللطيفة يواسي جراح قلبي العميقة .
وتحمل الي تمتماته الحلوة تحيات عذبة من حبيبي .
فقبل ان تلف الظلمة هذه الهضاب بوشاحها الاسود ،
سأستقر آمنة في حضنه الهادىء . »

ويبلغ حبهما في هيدلبرج ذروته القصوى ، وتنشده ماريان تحفتها الثانية (ريح الغرب) :

« آه من اجنحتك الندية يا ريح الغرب »

ولكن جوته ، في الفترة نفسها التي يصل فيها حبه الى وهجه المستعر الجامح ، حتى ليكاد يطغي على نور وجدانه وعقله ، تهب نفحة علوية من سريرته الطيبة فيعمد الى الشعلة ، ويطفؤها بحركة إله .

وتسير العربة بحبيبته من هيدلبيرج فيشعر بقلبه يضطرم ويثب ويخيل اليه انه اخر حب له في الدنيا . ولن يقدر لجوته خلال الثماني عشرة سنة التي تفصله عن لحده ، ان يزور مسقط رأسه اويرى ماريان وصديقه ويلمير . وتنطفيء جذوة هذا الحب ببطء ودعة ويستحيل مع الزمن الى روىء وذكريات واحلام ...

ويعود جوته في اوائل تشرين فيضمه الى كريستيان البيت الزوجي . وكان الشتاء قارسا فيقبع الى قرب المدفأة ويجمع اشعاره وذكرياته ،

ويرسل بين حين وآخر ، خلال بلور النـافذة ، نظرات دامعة حنونة الى الافق البعيد .

وتقرأ كريستيان هذه الاشعار...

— انها رائعة ، اين جرت وقائع هذا الحب العظيم؟ على شاطىء الفرات؟ ما اجمل هذه الاشعار ، واشعارها هي خاصة !

— انها لحافظ ، الشاعر الفارسي ، حافظ شيراز وحبيبته زلخى .

ولابد لشاعرنا الشيخ ان ينتظر ثماني سنوات اخرى، ويطأ عتبة الرابعة والسبعين حتى يلتقي بالـريك ليفنتزوف، وكانت تستقبل التاسعة عشرة، ليتوج سلسلة حبه العجيب ويخلف لتراث الشعر العالمي قصيدة مارينباد الخالدة .

آلام فرتر

ان (لثرتر) مكانتها السامية الفذة في الادب الالمـاني وادب الغرب، فهي تتعدى كونها قصة حب رائع لشاعر عظيم توخى فيهـا وصف دقائق مشاعره ازاء حب زاخر كان يعصف في صدره كالسيل الجارف ، تتعدى هذا الى انها ثورة حكيم ملهم يجابه الحياة في حالة من توتر النفس وارهاف الحس فيسعى الى تنقية ينابيعها من مشاعر الخوف والصغارة والوهم ، مما تعززه فينا ونحفر اخاديده بعمق قوانين المجتمع وتقاليده وتقيم به السدود لوقف سيل العبقرية المبدعة كما يقول جوته .

انها ثورة على العقل في ركونه واستسلامه ، ودعوة الى الطبيعة ، الى القلب الذي يعتبره جوته مصدر المقدسات ومنبع كل قوة وفضيلة في

الانسان . وقد كانت (ڤرتر) في دعوتها هذه ، الاثر الفني الاول للحركة الادبية الناشئة في المانيا على غرار الرومانتيسم الفرنسي، وان كانت تفوقها في الثورة والعنف وفي الدعوة الى تثبيت حق العبقري في المخالفة والاستثناء والشذوذ ، وقوام هذه المدرسة الرجوع الى الطبيعة واستلهامها الروائع والمقدسات ، وتغليب العاطفة والخيال على احكام العقل .

لقد تعرف جوته الى (شرلوت باف) واحبها يوم ذهب الى وتسلار للتمرن على المرافعة امام محاكمها . ولست اود بيان الظروف التي نسجت خيوط (ڤرتر) فالمؤلفات التي تستمد حياتها من عنصري العاطفة والخيال تخلق في قرائها نوعا من اليقين ليس من مصلحتهم ازالته . وكل ما يجب ان نعلمه ان جوته احب شرلوت ، وكانت تربطه الى خطيبها (كتسنر) اواصر الصداقة ، وانه هجر الخطيبين في النهاية ، وكان حتما عليه ان يهجر ..

وظهرت (ڤرتر) سنة ١٧٧٤، وقدم جوته النسخة الاولى الى شرلوت مع كلمة اهداء لطيفة ، فأثار في قلبها شيئا من الاسى الحالم . ورأى كتسنر ان صديقه قد ظلمه بالصورة التي قدمه فيها ، وانه اساء الى سمعة زوجته . وبدأت بينهما سلسلة من الرسائل فيها عتاب ولوم واستغفار ، حتى اضطر جوته ، تحت تأثير مدام (دي ستين) الملطّف ان يجري فيها بعض التعديل .

وظهرت (آلام ڤرتر) في شكلها النهائي الذي يعرفه العالم في طبعة سنة ١٧٨٦ .

وبعد هذه ترجمتي اضعها بين ايدي القراء الكرام ، وقد حرصت فيها على ان اكون امينا للاصل فتتبعت الشاعر في صوره وخيالاته الشعرية ، وتوخيت في اسلوبها جذالة اللفظ وجرسه الموسيقي ، والتعابير السلسة الشفّافة .

وجل ما ابغي وارجو ، ان اكون قد وفقت الى تقديم صورة امينة صادقة عن هذه التحفة الشعرية الرائعة ، وان يجد فيها محبو الادب والشعر ، واخص منهم الاجيال الفتيّة ، الثائرة على الركود والاستسلام والعماوة ، صدى لما يختلج في قلوبهم من ثورة وحب .

ولعل (آلام ڤرتر) ، بما تكشفه من خفايا النفس البشرية وضعفها ، تستطيع في غمرة ما يكتنف الشباب العربي من قلق وجداني ونقمة وحيرة ، ان تواسي القلوب الطيّبة والنفوس الحزينة في بحران اوضاعنا ومآسينا ..

نخله ورد

دمشق في ٢١ اذار ١٩٥٠

أيها القارئ

لقد جمعت لك في هذا الكتاب كل ما تيسر لي جمعه من قصة فرتر البائس . وإني لواثق ، أنك ستحمد لي هذا الجهد ، فلن تحبس عن هذا الشاب إعجابك بفكره وتوقد ذهنه ، وحبك لخصاله وجميل خلقه . ولن تضن بالدموع تذرفها حزناً وأسى على مصيره .

وأنت أيتها النفوس النبيلة الطيبة التي قدر لها أن تعاني ما عاناه فرتر ، ليكن لك من آلامه عزاء وسلوى وليغدو لك هذا الكتاب رفيقاً وصديقاً وفياً ، إن فجعتك الأقدار بالرفيق ، أو أقصت أخطاؤك الصديق .

« جوته »

الجزء الاول

٤ ايار ١٧٧١

لشد ما ابهجني وافرح نفسي انني سافرت ! آه ، ما اعجب قلب الانسان ، يا صديقي ! آأبارحك انت ، ولم اكن لأطيق عن فراقك صبرا ، واشعر بالبهجة والفرح ؟

ولكني واثق منك بالصفح . وصلاتي الاخرى . . . ؟

الا يبدو ان القدر قد ألفها خصيصا لتعذيب قلب حساس كقلبي ؟ مسكينة ليونورا !

إلا أني ، على هذا ، لم اكن مذنبا . فهل تكون خطيئتي انا ، ان كان قد بدأ يتقد في صدرها ذلك الحب العاصف المشئوم ، بينما كنت أستمتع لاهياً بمفاتن شقيقتها ؟ ولكن ! هل انا بريء حقاً ؟

ألم أغذ مشاعرها واله باندفاعاتها الساذجة ، التي كثيراً ما اضحكتنا ، على قلة ما فيها من بواعث للضحك ؟

ألم . . ؟

وارحمتاه لك ايها الانسان .

فما ترى يكون شأنك ، حتى تجرؤ على شكاية نفسك ؟

ألا اني اعاهدك ايها الصديق العزيز ان اصلح نفسي ، وليس لي بعد الان ، ان ألح في ارتشاف الاشجان ، وتذوق مرارة الالام الصغيرة التي ترشقنا بها يد القدر . سأستمتع بحاضري ولن يكون لي الماضي سوى ماض منسي .

وانك مصيب بلا ريب . فلقد كان بوسع الناس ان يخففوا من حدة اشجانهم ، لولا استغراقهم ، بكل ما يملكون من خيال ، في استثارة هذه الاشجان (ويعلم الله لم جبلوا على هذا) ، وكان حرياً بهم ان يبذلوا الجهد ليجعلوا حاضرهم محتملا مقبولا .

ارجو ان تقول لامي انني معنى بقضيتها . وسأواصلها بما يجد في شأنها .

وقد تحدثت الى خالتي ، المرأة التي احلوها تلك المنزلة من الحبث . انها حادة الطبع ، سريعة الغضب . إلا انها ذات قلب شفوق رحيم .

وقد عرضت لها ماتشكوه امي من امر ميراثها المحتجز فأبانت لي عما ترى لها من حقوق واعذار . وذكرت لي شروطاً تضعها لتعطينا كل ما نريد ، ويتجاوز حدود ما نطلب .

وليس بوسعي اليوم ان ازيدك بياناً . وحسبك ان تقول لامي ان القضية صائرة الى ما نحب . ولقد رأيت مرة اخرى في هذه المشكلة الصغيرة ، ان سوء التأويل واللامبالاة يسببان من المساوىء والخلل في علاقات الناس ، اكثر مما يسببه الحبث والاحتيال ، وهما على التأكيد ، أندر وقوعا .

انني اشعر هنا بالامن والغبطة .

وعزلتي في هذه الرياض السماوية تغمر قلبي الواجف بخدر عطر لطيف

يستكين له ، وتهدأ رعشاته لحرارة الجو المنعشة في هـذا الفصل الذي يشيع الحياة والبعث اينما حل .

ان كل شجرة وكل سياج باقة كبيرة من الرياحين والزهور ، حتى ليتمنى المرء ان يستحيل الى فراشة تسبح في خضم هذه العطور وتستقطر منها غذاءها .

والمدينة ليست على شيء من الرواء ولكن لضواحيها حظاً كبيراً من البهاء والفتنة ، مما اهاب بالكونت المرحوم (م) ان يغرس حديقة له على احدى هذه الروابي التي تتتابع ، بكثير من الروعة والسحر ، لتؤلف هذه المجموعة من الشعاب والاودية الزاهية .

والحديقة بسيطة في زخرفها ، يشعر الزائر لاول وهلة ، انها لم تكن من صنع مهندس خبير وانما خطرمتها شاعر حساس توخى الاستمتاع فيها بذاته .

واني كثيراً ما اذرف الدمع وانا استثير ذكرى الكونت الراحل ، في رواق مهدم كان بالامس ركنه المفضل ، واضحى اليوم خلوتي المحبوبة .

سأضحي عما قريب سيد الحديقة ، فقد توثقت عرى المودة بيني وبين البستاني في مدى ايام قليلة ، ولن يجد مني ما يورثه على ذلك ندما .

١٠ ايار

ان نفسي راضية مطمئنة يسودها صفاء وامن عجيب اشبه بسحر هذا الصباح الربيعي اللطيف ، استمتع نشوان بمفاتنه ، واتذوق لوحدي غبطة الحياة في بقعة خلقت ملاذاً لنفوس مرهفة كنفسي .

انني لجد سعيد يا صديقي ، وانا في غمرة الشعور بوجودي الوديع

الهادىء ، حتى لا حس ، بشيء من الاسى ، ان ملكاتي الادبية تتلاشى وتفنى في رخاء هذه الحياة الصفية الآمنة .

لم يكن بوسعي من قبل ان ارسم خطا واحدا . واجدني اليوم مصوراً ملهما .

وانني لاشعر ، عندما تتصاعد امامي ابخرة السحب التي تملأ حنايا الوادي ، ويخترق كوكب الصباح قباب الغابة المظلمة ، فلا ينفذ منها الى محرابي المقدس ، غير شعاع ضئيل متناثر ،

وانا مستلق على الارض ، قرب الغدير ، بين الاعشاب الطويلة ، اتبين من حولي آلاف النباتات الصغيرة المجهولة ،

واحس بوجود هذا العالم الصغير تموج به الاعشاب والهوام والحشرات من كل لون وشكل ،

اني لاشعر ، واحس من اعماق كياني بوجود الخالق المحب القدير الذي برأنا على صورته ، وجعلنا نطفو فوق هذا الحضم الازلي من اللذائذ والمتع .

وعندما ينبثق هذا العالم اللانهائي امام ناظري ، وتنعكس في ذاتي صورة السماء ، كما تنطبع في القلب صورة الحبيب ،

أصعد تنهدة واهتف لنفسي : « آه لو استطيع التعبير عما يختلج في صدري . وليت لي ان انفث واثبت على القرطاس دقائق هذه الحياة التي تسري فيّ بكل غزارتها وغليانها ، حتى يصبح القرطاس ، مرآة روحي ، كما ان روحي مرآة الاله الازلي » .

آه يا صديقي . اني لاحس ان نفسي تغور وتفنى في سناء هذه الروعة وجلالها .

١٢ ايار

لست ادري ان كان ثمة ارواح شاردة مضللة تهيم في هـذا الوادي ام ان هذيان روىء الهية تملك قلبي وكل الاشياء من حولي بوضاءة حسن فردوسي.

فهنا في مدخل القرية ينبوع ماءعذب يجتذبني بسحره كانني ميلوزين (*) واخواتها. فعلى سفح رابية، مغارة تهبط منهـا عشرين درجة فتجد ماء بلوريا صافيا يترقرق خلال الرخام.

ان الحائط الصغير الذي يؤلف السياج، والاشجار الباسقة التي تظلله، ثم طراءة الجو المنعشة، لما يجتذبك بشدة ويبعث فيك ارتعـاشاً خفيفا. ولا يكاد ينقضي يوم لا استريح فيه ساعة في هذه المغارة المسحورة.

وفتيات المدينة يردن الينبوع ليملأن جرارهن. وذاك شاغل بدائي مفيد لم يكن ليأنف منه في القديم بنات الملوك انفسهن.

ان الحياة الابوية القديمة تتراءى هنـا لخاطري فأتخيل لقاء الفتيان والصبايا على ضفاف الينابيع حيث يتم التعارف وتبث لواعج الهوى واماني الحب والزواج، في ظل الاشباح المحبة الطيبة، والتي تحوم دائماً حول الآبار والينابيع.

آه.. ان الذي لم يرتو بعد ظمأ ولم ينعم بالطراءة المنعشة، في الظلال الوارفة، بعد سفر مضن تحت شمس متوهجة، لن يتذوق المشاعر التي نعمت بها في كنف هذا الينبوع.

(*) جنية خرافية تزعم الاساطير انها بانية قصر لوزينيان وحاميته فاذا هددته قوى الشر ونوازل الطبيعة ظهرت على برجه الاكبر.

١٣ ايار

تسألني ان كنت اريد ان تبعث إلي كتبي ؟ . .

ناشدتك السماء الا تفعل . لا تدعها تقترب مني !

فلست ابغي ان اقاد وأثار وألهب .

ان قلبي ليضطرم كفاية من ذاته ، فهو احوج الى اناشيد تهدهد له . وقد وجدت منها بغيتي لدى هوميروس .

اني اشعر بحاجة الى ما يسكن من ثورة دمي الفائر . وانت تعلم ان ليس من قلب اشد تغيراً ولا اكثر اضطراباً من قلبي . فلطالما آلمك ان تراني انتقل من حالة حزن قاتم الى فرح مثير ، ومن الاسى الهادىء الى الثورة العاصفة .

اني اعامل قلبي معاملة طفل عليل .

لاتبح بهذا لاحد . فقد يجعل منه بعض الناس جريمة .

١٥ ايار

تعرفت الى افاضل سكان القرية فأضحوا واطفالهم خاصة ، شديدي التعلق بي . وكنت في البدء ، كلما سعيت اليهم استوضحهم ، بلهجة صديق ، بعض الشئون ، اعرضوا نافرين ظناً منهم اني اقصد الهزء بهم . وما كنت اكترث لهذا او تأخذني بهم ريبة بل زادني يقيناً بما لحظته غير مرة من ان بعض الخاصة يترفعون عمن دونهم مرتبة ويقفون حيالهم مستكبرين كانهم يخشون ما قد يحط بهم ويغض من قيمتهم . وبين هؤلاء من الطائشين

الحمقى ، ممن يبدو انهم لا يتنزلون الى مستوى هؤلاء المساكين الا لغاية ايلامهم والنيل من عزتهم .

وانا اعلم ان الناس ليسوا اكفاء ولا متساوين . وليس بوسعنا ان نكون كذلك . ولكني ارى ان من يجد نفسه مضطراً الى الابتعاد والترفع عمن نسميه الشعب ، ليظفر منه بالتجلة والاحترام انما يشبه النذل الجبان الذي يتوارى عن عدوه خشية الانكسار والهزيمة .

ذهبت الى الينبوع امس فصادفت خادمة صغيرة وضعت جرتها في اسفل الدرج وراحت تتحرى بعينيها عن رفيقة تساعدها في وضع الاناء على رأسها ، فنزلت وقلت لها وانا اتأملها : « هل تقبلين مساعدتي يا بنية » ؟

وتوهجت وجنتاها بلون النار وتمتمت : « اواه ، عفواً يا سيدي » .

قلت : « هيا ، لا داعي للكلفة » .

واصلحت حويتها الصغيرة فوضعت فوقها الجرة .

ثم شكرتني وراحت تصعد الدرج .

١٧ ايار

تعرفت الى اناس كثيرين في القرية الا اني لم اوفق الى اختيار صحابتي بعد . ولا ادري مايحبب الناس فيّ ، فهم يتقربون مني ويتعلقون بي . واني لاشعر بشيء من الضيق والضجر كلما ضمنا الطريق برهة في وجهة سير واحدة .

واذا بدا لك يا صديقي ان تلم بشيء عن الناس هنا ، فاعلم انهم من ناس كل زمان ومكان . ان النوع البشري لغريب في تقاربه وشبهه . فجلهم ينفقون معظم الوقت في الكدح لشئون عيشهم ، فاذا بقيت لهم فسحة من

فراغ ، كانت عبئاً ثقيلا على كواهلهم حتى يجهدون للتخلص منه بكل الوسائل الممكنة .

يا للانسان . ما اظلم قدره !

ولكنهم على هذا ، اناس كرماء طيبون . وانا انسى نفسي احياناً فأشاركهم ما تبقى للانسان من ملذات كالجلوس الى مائدة عامرة يسودها الولاء والصميمية ، والخروج في مركبة الى نزهة في الخلاء ، او حضور حفلة راقصة تقام عفوا .

وتترك لي هذه الملاهي البريئة اثرا طيبا ، الا حين تردني الى نفسي فاذكر ان لي ملكات ، يصدؤها الاخلاد الى التبطل والراحة ، ويتحتم علي ان احرص على اخفائها .

ان قلبي لينقبض لهذا الخاطر . على ان حظ الكثيرين في هذا العالم ان يعيشوا غرباء مجهولين .

اواه ! لم فجعتني الاقدار برفيقة صباي ؟ (*) ولم عرفتها ؟

كثيرا ما اهتف لنفسي : « انك مجنون يصبو الى ماليس له وجود في هذه الدنيا . »

ولكني وجدت تلك الرفيقة العزيزة .

وشعرت بنبضات قلبها الكبير وروحها السامية .

وكنت اجدني امامها اكثر مما انا .

لاني كنت كل ما استطيع ان اكون .

(*) فرولين فون روسيون التي عرفها جوته في درمستاد . وتوفيت سنة ١٧٧٣ وقد جاء ذكرها في آخر رسالة كتبها ڤرتر لشرلوت .

إلهي ! هل كان لملكة واحدة من ملكات نفسي ان تظل بلا حياة وعمل امامها ؟

الم يكن بوسعي ان انمي الى درجة الكمال هذه القدرة العجيبة التي يتبسط بها قلبي ويطفح حتى ليعانق الكون باسره ؟

كانت احاديثنا الدائمة خطرات متبادلة لاعمق مشاعر القلب وادق آيات الفكر . كان الهزل والدعابة ، تتسم بطابع العبقرية ، حتى في مباذلها . والان . لهفاه ! لقد عجلت بها الى القبر السنون التي تزيدني بها عمرا . ولكن ذكرها خالد في قلبي . فسأذكر ابداً خلقها النبيل ونفسها السمحة الكريمة .

لقيت منذ ايام السيد ف . وهو شاب مرح وسيم وحديث عهد بالجامعة . وقد بدا لي متفتح الذهن منطلق السجية .

انه لا يعتبر نفسه عبقريا ، على الضبط ، ولكنه واثق من معارفه . ولحظت بالفعل أن له حظاً من الثقافة . وقد تعلق بي ولازمني لما درى بمعرفتي لليونانية والرسم . (وهما من الغرائب في هذا البلد) . وكشف لي عن جملة معارفه من باتو « Batteux » الى وود « Wood » ومن بيل « Piles » حتى ونكلمان « WincKelmann » .

واكد لي انه استوعب الجزء الاول من نظرية سلزر « Sulzer » (في الفنون الجميلة) وانه يملك مخطوطا لهين « Heyne » في دراسة العهد القديم . وقد تركته يتحدث دون مراجعة .

تعرفت ايضا الى نائب الحاكم وهو رجل كريم الخلق طيب النفس وقد قيل لي انه لما يبهج القلب رؤيته في حلقة بنيه التسعة وبينهم فتاته

البكر التي يحيطها الناس بهالة من الاعجاب والولاء . لقد دعاني لزيارته وسألني الدعوة في بكرة الغد .

انه يقطن على بعد ميل ونصف من المدينة ، في منزل صيد للامير كان قد استأذنه ان يلجأ اليه عقب وفاة امرأته ، بعد ان اضحى سكن البيت المفجوع عبئاً ثقيلا على قلبه .

ولقيت انماطاً غريبة من الناس كل ما فيهم غير محتمل لاسيما مايبدون من علائم الود المصطنع .

وداعاً . ان رسالتي ستروقك هذه المرة ، ففيها شيء من التاريخ والقصص .

٢٢ ايار

الحياة البشرية حلم .

وهي فكرة قالها كثيرون قبلي . ولكنها تلاحقني اليوم انى سرت .

فعندما أتأمل الحدود الضيقة التي ترتسم ضمنها ملكات الانسان ، قوى الفكر والجسد .

عندما ارى اننا نستنفد طاقتنا كلها في قضاء حاجاتنا .

وان هذه الحاجات انما ترمي الى مد آجالنا الشقية التافهة .

وان ضماننتنا في كثير من القضايا ، انما هي استسلام واذعان اساسه الوهم والفرض ، شأن المساجين الذين يرسمون على جدران سجنهم النقوش والمشاهد الطريفة الضاحكة ليسروا عن انفسهم ،

ان كل هذا ليخلد بي الى السكون والصمت فانطوي على نفسي وانأى بها عن عالم الحقائق البينة والقوى الحية العاملة ، لاهيم في عالم وهمي قوامه

الحدس والرغائب الغامضة المظلمة ، حتى اجد المرئيات تهتز وتترنح امامي ، فابتسم واتوغل في عالمي الحالم .

ان حياة الاطفال قائمة على الطيش والعبث .

تلك حقيقة لا ينفك عن ترديدها علماء التربية .

اما ان يكون الرجال اطفالاً كبارا يتخبطون في سيرهم على هذه الكرة فلا يدرون من اين اتوا والى اين هم صائرون ،

وانهم لا يعرفون لاعمالهم غاية ولا غرضا واضحا ،

وانما هم كالاطفال يساسون بالعصا حينا ، والبسكويت والحلوى حينا آخر ،

اما هذا فليس من يريد تصديقه والاعتراف به .

ولكنه في رأيي حقيقة ملموسة .

واني اسلم معك ، (لاني اعرف ما تريد قوله) بان السعادة انما هي لهؤلاء الذين يعيشون يومهم ليومهم كالاطفال ، يلاعبون دماياتهم ، ويلبسونها الحلل مرة ثم ينضونها عنها ويطوفون بمهابة وخشوع امام خزانة الملبس والحلوى ، فاذا اصابوا منها حظهم التهموه بشره وصاحوا : « نريد ، نريد ايضا يا اماه » .

اجل . انها لمخلوقات سعيدة . وانهم لسعداء ايضا هؤلاء الذين يضفون على اعمالهم التافهة ، العناوين الضخمة البراقة ، ويجعلون من التهاويل الفارغة مشاريع انسانية عظيمة خلقت في سبيل السلام ولاسعاد النوع البشري .

طوبى لاولئك الذين يفكرون على هذا الغرار .

ولكن الرجل الذي يعترف بضعة وذلة ، بالنهاية التي يفضي اليها كل هذا .

ذلك الذي ينظر الى هـذا البورجوازي ، كيف يزين حديقته الصغيرة ليجعل منها جنة وارفة .

ويتطلع الى ذاك البائس المثقل بأحمال الحيـاة ، وهو يجر نفسه على الطريق راضخاً مستسلماً ، وكلاهما حريص ان يستمتع دقيقـة اخرى على الارض بأنوار الشمس الغاربة ، ان مثل هذا الرجل لـكائن سعيد . فهو يبني له عالما في ذاته . انه سعيد لشعوره بكونه رجلا . ومهما تكن قدرته ضئيـلة محدودة ، فهو ينمي في صدره شعور الحرية الحبيبـة ، اذ يعلم انه يستطيع ، متى يشاء ، ان يترك سجنه الارضي .

٢٦ ايار

انك تعرف ، منذ امد طويل ، طريقتي في تدبير شئون سكني وعيشي . فاذا لقيت مكانا يلائمني اتخذت لي منه مخيما اعيش فيه بوسائلي البسيطة المتواضعة .

وقد وجدت هنا بقعة اغوتني بجمالهـا ، فعلى بعد ميل من المدينة قرية تدعى وَلْـهِم (*) تقع على سفح رابية لطيفة وتشمل انظار الصاعد اليهـا مشهد الوادي كله . وفي هذه القرية حانة لسيدة نشيطة مرحة رغم سنها ، تقدم فيها النبيذ والبيرة والقهوة . واجمل ماتراه هناك شجرتان من الزيزفون تغطي اغصانها الكثيفة الساحة الصغيرة الممتدة امام الكنيسة والتي تسيجها مخازن الغلال واكواخ الفلاحين ومزارعهم .

(*) نرجو القارىء الا يجهد للتعرف على الامكنة المذكورة هنا ، فقد اضطررنا الى تغيير الاسماء الاصلية (جوته) .

لم اقع في حياتي قط على خلوة تفوقها هدوءاً وصميمية .

وقد احضرت من الحانة كرسيا ومنضدة وجلست انعم بشرب القهوة وقراءة هوميروس .

وكانت المرة الاولى التي ساقتني فيها الصدفة الى هذا المكان ، عصر يوم جميل ، وكان الحي خلواً من اهله لانشغالهم في اعمال الحقول فلم أر الا طفلا في الرابعة من عمره ، جالساً الى الارض وبين ساقيه رضيع في الشهر السادس وقد اسنده الى صدره بيديه الصغيرتين .

وكان يبدو هادئا مطمئنا رغم نظراته السريعة الحادة يطلقها هنا وهناك .

وقد سرني هذا المشهد فجلست على محراث يقع امامه ، ورحت ارسم بلذة فائقة هذا الوضع الاخوي الجميل . واضفت اليه قسما من السياج وبابا لاحد مخازن الغلال وبعض العجلات المحطمة المنتثرة بلا نظام كما وجدتها .

ورأيتني قد ظفرت بعض ساعة برسم جيد لم ازد عليه شيئا من عندي . وقد وطد ذلك من عزمي على الوقوف عند حدود الطبيعة فهي وحدها الغنية التي لا ينضب لها معين . وهي وحدها التي تخلق الفنان الكبير .

بوسعنا ان نقول الشيء الكثير في امتداح القواعد واكبار شأنها كما نثني في الغالب على قوانين المجتمع . فالرجل الذي يتقيد بالقواعد الموضوعة لاينتج اثرا تافها او رديئا . والرجل الذي يتبع العرف والقواعد الاجتماعية المقررة ، يندر ان يكون جارا ثقيلا او مسيئا .

ولكن كل قاعدة ، مهما قيل فيها ، انما تخنق شعورنا العفوي بالطبيعة ، وتفسد عبارته الصادقة الصحيحة .

اخالك تصرخ محتجا : « ان هـذا لكثير فالقواعد من شأنها وضع الحدود وتشذيب الاغصان المتطاولة النهمة . »

ان شأن الفن في هذا شأن الحب . فهب ان شابا هام بفتاة جميلة راح ينفق الى قربها كل ساعات يومه ، ويبذل امامها جملة مواهبه وكل ما تملك يداه ، ليبرهن لها انه اضحى لها بكليته .

ويجيؤه بورجوازي (*) مشفق يقول له ناصحا : « ان الحب ايها الفتى من طبائع البشر . ولكن عليك ان تحب كما يليق بالرجال ، فيجمل بك ان تعدل في تقسيم اوقاتك فتخص عملك بقسط وتهب حبيبتك ما تبقى لك من ساعات الفراغ . ثم يجب ان تحسب دخلك وخرجك فاذا زاد لك شيء لا بأس ان تطرف غادتك ببعض الهدايا على ان تقصرها على يوم عيدها او ذكرى ميلادها . »

وفتانا ان يتبع هذا النصح ، يصبح رصينا حكيما ويحسن باي امير ان يدخله في خدمته وينتفع بعقله وتجاربه . ولكنه ، انما يقتل بهـذا حبه ، ويقضي ، ان كان فناناً ، على بواعث فنه .

(*) انا نجد في مهاجمة (جوته) للقواعد والقوانين صدى لتباشير الحركة الفكرية والادبيـة التي قامت في المانيا في النصف الثاني للقرن الثامن عشر (Sturm und Drang) وترعرت مع (جوته) و (هردر) و (ويلاند) على غرار حركة الرومانتيسم التي بشر بها روسو في فرنسا . وقوامها الرجوع الى الطبيعة وتغليب العاطفة والخيال على العقل ، وحق العبقري في تجاوز القواعد والقوانين لمصلحة عبقريته وفنه .

وجوته يقصد بتعبير بورجوازي هنا رجل المجتمع الخامل والعادي في معارفه وعواطفه . ونقيضها عنده رجل الفن او الفنان .

الا بركم يا اصدقائي .

لماذا تطفح سيول العبقرية على الكون بمثل هذه الندرة ؟

لمَ لا تصطخب امواجها ولا تندفع لتهز نفوسكم المستنيمة ، الذاهلة ، الاغرارا ؟

ذلك يا اصدقائي لان هناك على الضفتين ، يقطن رجال عقلاء متزمتون يخشون ان يغمر السيل مساكنهم الصغيرة ويخرب السدود ويحطم اعواد السوسن وحظائر الملفوف ، فهم يعاجلونه بالحواجز ويفتحون له الثغرات اتقاءً لاخطاره المهددة .

٢٧ ايار

اراني قد تهت في حماسة الاستعارات والخطب ولم اكمل لك قصة الطفلين . لقد استغرقتني مشاعر الفنان فذهلت عن نفسي وكتبت لك رسالة الامس مفككة مضطربة .

بقيت ساعتين جالسا على المحراث ، فلما قاربت الشمس المغيب جاءت سيدة فتية على ذراعها سلة واتجهت صوب الغلامين ، وكانا على حالهما من السكون والدعة وصرخت من بعيد : « فيليب انت ولد طيب » وحيتني فرددت تحيتها وتقدمت اسالها ان كانت ام هذين الطفلين فاجابت : « نعم » واعطت الصبي الكبير نصف رغيف من الخبز الابيض واحتضنت الصغير فقبلته بحنان ام ولهى وقالت لي : « تركت الصغير في رعاية اخيه وقصدت المدينة مع ولدي البكر لشراء خبز ابيض وسكر ومقلاة خزفية (ورايت هذه الاشياء في السلة حين سقط غطاؤها) وساصنع الليلة حساءً

طيبا لهانس (اسم الرضيع) فقد كسر المقلاة امس ولدي البكر الخبيث، بعد شجار مع فيليب ، من اجل بقايا المرق . »

وسالتها عن ولدها البكر فلم تكد تهم بالجواب حتى رأيته يعدو وراء الاوز في المرج ويقفز مقبلا وفي يده قضيب من شجر البندق احضره لاخيه . ومضيت في الحديث مع المرأة فعلمت انها بنت معلم القرية وان زوجها قد سافر الى سويسرا ليحصل على نصيبه من تركة ابن عم له وقالت: « ارادوا خداعه ولم يجيبوا على رسائله فذهب اليهم بنفسه ، واني قلقة جزعة وارجو الا يصيبه مكروه فقد انقطعت عني اخباره . »

وشعرت بمضض لفراق هذه السيدة وناولت كلا من ولديها كرتزرا (*) واعطيتها واحدا لتشتري به خبزا ابيض لصغيرها عندما تذهب الى المدينة.

ليس ما يهدىء من فورة دمي ايها الصديق ، عندما يثور ويصطخب كرؤية مخلوق من امثال هذه السيدة التي تجتاز ، في امن ودعة ، دائرة حياتها الضيقة فتجد لكل يوم قوته ، وتتطلع الى اشجار الحقل كيف تتساقط اوراقها وتنتثر فلا يخطر لها شيء سوى ان الشتاء يقترب .

ومنذ ذلك اليوم وانا اختلف الى هذا المكان . وقد انس اليّ الاطفال وتعلقوا بي ، وانا اوزع عليهم السكر عندما اتناول القهوة واقاسمهم في المساء الخبز والزبد . فاذا جاء يوم الاحد ، اخذ كل منهم كرتزره ، واذا تغيبت وقت الصلاة فربة الحانة تؤدي مهمة التوزيع ، بتكليف مني .

والاطفال لطفاء انيسون اسمع منهم الوانا من القصص ، وتلذ لي

(*) عملة المانية تساوي ٢٠ قرشا تقريبا .

بصورة خاصة عواطفهم الصغيرة وغيرتهم الساذجة عندما يحيط بي غيرهم من اطفال القرية . وقد عانيت كثيرا لتطمين خاطر الام التي تخشى ان يكون اطفالها سببا لازعاجي .

٣٠ ايار

ان ما قلته لك سابقا عن الفن ينطبق بالتأكيد على الشعر ايضا ، فقصارى جهدنا فيه التعرف على الجمال والقدرة على التعبير عنه .

والحق انه لمطلب عسير في كلمات قليلة .

اتيح لي اليوم ان استمتع بمشهد رائع لو يؤدى اداءً حسنا ، لكان لنا منه اجمل قصيدة غزل في العالم .

ولكن . لمَ نقحم هنا الشعر والمشاهد والغزل ؟

وما لنا نجهد دوما في القياس على نماذج عندما يكفينا السير على السجية والوقوف عند مظهر معين من مظاهر الطبيعة .

وانك لتخيب ظنا ان بت تنتظر بعد هذه المقدمة ، ماهو عظيم ورائع . فالذي اثار كوامن صدري فلاح بسيط ، وانا لن احسن الوصف على عادتي ، وارى انك ستتهمني بالاسهاب والغلو ، على عادتك .

وهي وَلْهِم . وَلْهِم دائما هي التي تبدع هذه الروائع .

فقد اجتمع بعضهم لشرب القهوة في ظلال الزيزفون . ولم ارتح لمجالستهم فتذرعت بما اقصاني عنهم . ولم البث ان رايت فتى قرويا يخرج من بيت مجاور ليصلح شيئا في المحراث الذي رسمت عليه من قبل . وراقني مظهره فتقدمت اليه اسأله عن بعض شانه .

وفي لحظات ، تم التعارف بيننا على حظ واف من الصميمية كما يحدث لي عادة مع مثل هذه الفئة الطيبة من الناس ، فذكر لي انه يعمل في خدمة ارملة تعامله برفق وعطف ، واسهب في الحديث عنها ، مثنيا على خصالها بدرجة عرفت منها مدى اخلاصه لها جسما وروحا . وزادني بقوله : « انها ليست شابة فتية ، وقد شقيت مع زوجها الاول حتى لم تعد تود الزواج ثانية . »

ودلني حديثه على مبلغ ما تتمتع به في نظره من جمال وفتنة ومدى ما تهفو به نفسه وتصبو امانيه ، ان يكون لها زوجا وفيا ليمحو عن قلبها ذكريات ماضيها الاليم .

ما احوجني ان اردد لك اقواله كلمة كلمة ان اردت ان اصف لك ما يعمر قلبه من عواطف الحب والوفاء .

اني افتقر الى مواهب شاعر عظيم لاستطيع تأدية معاني حركاته ونبرات صوته والنار المتوهجة في عينيه .

كلا ، ليس بوسع اللغة ان تعبر عن الحنان الذي يتقد في نظراته ويتلألأ على محياه ، ومهما حاولت فلن آتيك بغير كلام ممل مضطرب .

ولكم اثرت بي مخاوفه من ان اسيء به الظن وتاخذني بسلوكه ريبة فاعلل صلته بسيدته بما يشين . واني لاتذوق الان في اعماق قلبي نشوة الاستماع اليه وهو يحدثني عن محاسن هذه المرأة التي فتنته وسحرت لبه ، على بعد عهدها بمفاتن الشباب .

لم يسبق لي ان رأيت طوال حياتي ايها الصديق ، شوقا مبرحا وهوى

عاصفا يسوده كل هـذا الطهر . بل لم اتخيل وجود حب كهذا حتى في عالم الاحلام .

ارجو الا تلومني ان قلت لك اني اكاد اذوب امام براءة هـذا الحب الصادق ، وان آية هـذا الحنان لا تغيب عن خاطري ، حتى لاشعر باني اتلاشى واذوي كأن نيران هذا الحب العظيم تلتهم قلبي .

ساسعى قريبا الى لقاء هذه المرأة .

كلا . اني احسن صنعا باجتنابها ، فخير لي الا اراها الا بعيون حبيبها ، فلعلها لا تبدو لناظري كما تتراءى لخاطري .

ولمَ اشوه مثل هذه الصورة الجميلة ؟

١٦ حزيران

لماذا لا اكتب لك ؟.. وتسألني هذا ، انت الخبير العليم ؟

كان عليك ان تحزر اني سعيد ، وبكلمة . . لقد تعرفت الى من مس شغاف قلبي ، وانني . . آه ، لست ادري . .

يصعب علي ان اقص عليك بالترتيب كيف تعرفت الى اعز والطف مخلوق على الارض . وانا لفرط سعادتي وفرحي لن احسن الرواية والوصف . انها ملاك !

ولكن الا يقول هذا كل منا في حبيبته ؟

على اني لست في وضع استطيع ان اوضح لك فيه مبلغ كمالها وعناصر هذا الكمال ، وحسبي انها ملكت قلبي واستولت على مشاعري .

ولكن ، اني مقدور كائن بشري ان يضم كل هذا الطهر الى مثل هذا

الذكاء ، كل هذه الوداعة والصلاح الى متانة الخلق ، وهذه الدعة والامن الروحي في مثل هذه الحياة العاملة الحافلة ؟

ان ما اقوله لك لهراء وتجريد سخيف لا يؤدي لمحة واحدة من محاسنها فدعني ارجىء الوصف الى فرصة اخرى .

كلا ، فان لم افعل هذا اليوم فلن افعله ابدا .

فانا مذ بدات رسالتي (دع هـذا بيننا) كدت ارمي ثلاث مرات بريشتي وانهض لاسرج جوادي . ولكني عزمت اليوم ألا اخرج .

وحسبي ان انهض بين حين وآخر لارى ارتفاع الشمس في الافق . .

. . .

لم استطع المقاومة . . وكان علي ان اذهب .

وها انا اكتب لك ، لدى عودتي ، بينما اتناول بعض الخبز والزبد .

لله ! ما كان اسعدني وابهج قلبي وانا اتأملها في حلقة اخوتها وشقيقاتها الثمانية تتألق على وجوههم سناء الحياة والفتوة .

ولكنك ، ان استمر على هذا النغم ، لن تفيد مني شيئا في بدء ولانهاية .

فاصغ الي اذن لاسرد عليك التفاصيل .

اخبرتك من قبل اني تعرفت الى وكيل الحاكم ، وانه دعاني لزيارته في صومعته المنعزلة ، او بالاحرى مملكته الصغيرة . ولكني اهملت الدعوة ، ولم يكن لي ان ازوره لو لم تكشف لي الصدف عن الكنز الذي يختبىء في صومعته الهادئة .

وذلك ان بعض الفتيان اعدوا حفلة راقصة في الريف فقبلت مشاركتهم بطيبة خاطر . وكانت رفيقتي الى الحفلة فتاة طيبة ذات حظ من الجمال

الا انها تافهة وغير جذابة . وكان المتفق عليه ان اقل مراقصتي وابنة عمها في مركبة نمر بها لنأخذ شرلوت (س) .

وقالت لي رفيقتي ونحن نجتاز الغابة الطويلة التي تؤدي الى بيت الصيد حيث يقطن وكيل الحاكم : « ستشاهد فتاة خلابة ، فحذار ان تقع في حبها . » قلت : لماذا ؟

اجابت : « انها موعودة لفتى نبيل اضطره موت ابيه ان يتغيب بعض الحين لتنظيم شئونه ، وسيلتمس له وظيفة عالية . »

وسمعت هذه التفاصيل بدون اكتراث .

وكانت الشمس تتوارى وراء الهضاب عندما توقفت عربتنا امام باب الباحة . وكانت حرارة الجو ثقيلة مرهقة فاظهرت السيدتان جزعهما من عاصفة مرتقبة تنم عنها غيوم رمادية مظلمة تتقطع فوق رؤوسنا ، فادعيت العلم بمظاهر الجو لابدد عنهما المخاوف . الا اني بدأت اخشى ما يعكر صفو الحفلة .

وعندما وطئت قدماي الارض تقدمت الينا خادمة رجتنا انتظار الانسة شرلوت هنيهة فهي لن تلبث طويلا . واجتزت الساحة لادنو من هذا البيت الجميل وصعدت الدرج فاذا بي اشاهد ، في مدخل الغرفة الاولى منظراً بهيا لم يقع طرفي قط على اجمل منه روعة وفتنة : اطفال ستة بين الثانية والحادية عشرة يتدافعون حول فتاة وسيمة القد لطيفة التكوين ترتدي حلة بيضاء بسيطة تزينها عقد وردية شاحبة على الذراعين والصدر . وكانت تمسك بيدها رغيفا من الخبز توزع منه على الصغار قطعا تناسب سنهم وقابليتهم وكانت تؤدي مهمتها بكثير من

الانطلاق والبشر فينفحها الصغار كلمة الشكر بسذاجة وطهر فائقين ، والايدي الصغيرة مرتفعة في الفضاء قبل اقتطاع الحصص ، فاذا اخذ كل منهم نصيبه ذهب بعضهم يعدو ويقفز فرحا واتجه البعض الآخر ، وهم على شيء من الوقار ، الى باب الباحة لرؤية السيدات والعربة التي سوف تقل حبيبتهم شرلوت . وتقدمت شرلوت تقول لي : « استميحك عفوا لتحملك مئونة الصعود وآسف لتكلف السيدات عناء الانتظار فقد انستني زينتي وبعض المشاغل التي اقتضاها تغيبي ان اعطي الصغار طعام العصر ، وهم لايرتضون عني بديلا . »

وقدمت لها محاملة عادية لا معنى لها وانا ماخوذ بكل جوارحي بجمال طلعتها وسحر محياها ونغم صوتها . وما كدت افيق من دهشتي وذهولي حتى عدت الى غرفتها واحضرت قفازها ومروحتها ، بينما كان الصغار ينظرون الي عن بعد من طرف خفي . فدنوت من اصغرهم سنا ، وكان ذا وجه بهي فتراجع نافرا . ودخلت شرلوت في تلك اللحظة فقالت له : « لويس ، اعط يدك الى ابن عمك . » فمد الصغير اليّ يده ولم تمنعني قذارة انفه السائل ، من معانقته بشوق . وقلت لشرلوت وانا اقدم لها يدي : « ابن عم ! اتحسبينني جديرا بسعادة الانتساب اليكم ؟ »

فافتر ثغرها عن ابتسامة خبيثة وقالت : « ان مذى قرابتنا لواسع فسيح ، وابناء عمي كثيرون ، وسيحزنني كثيرا ان تكون اسوأ افراد الاسرة جميعا . »

ولما هممت بالخروج اوصت صوفيا وهي الاخت التي تليها سنا ، وعمرها احدى عشرة سنة ، ان ترعى اخوتها وتنوب عنها في تقبيل والدها لدى

رجوعه من نزهته ، واوصت الصغار باطاعة صوفيا كما لو كانت شرلوت ذاتها فوعد بذلك بعضهم . ولكن شقراء نابهة في السادسة من عمرها قالت بلهجة جريئة قادرة : « انها لن تكون مثلك ياشرلوت ، ونحب ان تكوني انت . »

وتسلق الصبيان الاكبران مؤخرة العربة فسمحت لهما شرلوت برجاء مني ، البقاء حتى مدخل الغابة بعد ان وعداها بالتزام السكون والحذر . ولم نكد نستقر في العربة وتاخذ سيداتنا بتبادل المجاملات المألوفة والملاحظات المتعلقة بزينتهن ، والقبعات خاصة ، واستعراض من ينتظر لقاؤه من المدعوين ، حتى امرت شرلوت السائق بالوقوف وانزلت اخويها الذين رجواها ان تسمح لهما بتقبيل يدها مرة اخرى . وطبع عليها الكبير حنان فتى في الخامسة عشر من عمره وقبلها الثاني قبلة غر مشوق . ثم حملتها التحيات لاخوتها واستانفنا السير .

وقالت ابنة العم لشرلوت : « هل قرأت الكتاب الذي بعثته لك ؟ » اجابت شرلوت : « كلا ، انه لا يروقني فبوسعك استرداده ، والكتاب السابق لم يكن افضل منه . » والح علي الفضول لمعرفة الكتابين وادهشني ان اعلم انهما من تأليف (*) ...

ووجدت في كل ما قالته معنىً كبيرا . بل اكتشفت في كل كلمة قالتها مفاتن جديدة ومومضات فكرية طريفة بدت على ثغرها ، وقد اضاءه فرح الشعور باني افهمها ، وقالت : « لم يكن يلذ لي وانا صغيرة مثل قراءة

(*) راينا اغفال هذا المقطع كي لا نسيء الى احد من كتابنا ، مهما كان اهتمام المؤلف طفيفا باحكام تصدر عن فتاة وشاب لم يبلغ رايهما مبلغ النضوج . « جوته »

القصص . ويعلم الله اي فرح كان يتملكني عندما كنت انزوي يوم الاحد في ركن هادىء لاشارك (المس جيني) افراحها وآلامها . ولا انكر ان هذا النوع من الكتب ما يزال له بعض سحره في قلبي .

ولما اضحت فترات تفرغي لقراءة الكتب نادرة ، وجب ان يكون الكتاب ملائما لذوقي كل الملاءمة . فالمؤلف المفضل لديّ هو الذي اجد عنده العالم الذي اعيش فيه ويصور ما يحيط بي . هو المؤلف الذي يمس بما يكتبه شغاف قلبي فيستهويني ، شأن حياتي العائلية الخاصة التي اجد فيها منبع سعادة وغبطة لا توصف ، بالرغم من انها ليست نعيما خالصا .

وحاولت عبثا اخفاء التأثر الذي احدثته فيّ كلماتها . وعندما سمعتها تتحدث ببساطة وصراحة مؤثرة عن (نائب وكفيلد) وغيره من الكتب (*) لم املك نفسي من ان اسرد في الموضوع كل ما بدا لخاطري. ولم اشعر ان السيدتين معنا وانهما هنا الى جانبنا، شاخصتا النظر وكأنهما غائبتان، الا عندما وجهت شرلوت اليهما الحديث . وقد رمتني ابنة العم اكثر من مرة بنظرة ساخرة لم اكترث لها كثيرا .

وانتقل بنا الحديث الى لذة الرقص فقالت شرلوت : « اني اعترف ، سواء كان هذا الميل نقيصة او لم يكن ، ان ليس من شيء عندي اسمى من الرقص . وكلما شعرت بما يمضني ذهبت الى البيان وعزفت لحنا راقصا فلا تلبث همومي ان تتبدد .

لشد ما كنت التهم ، خلال هذا الحديث ، عينيها السوداوين !

(*) حذفنا هنا بعض اسماء مؤلفينا ، والذي يشارك شرلوت عواطفها نحوهم يجد اسماءهم مطبوعة على قلبه ، اما الاخرون فليس بهم ثمة حاجة الى ذلك . (جوته)

لشد ما كانت تهيم روحي على شفتيها الكرزيتين ووجنتيها النضيرتين . ولكم كانت تجتذبني معاني حديثها وغمرة انفعالاته ، فلا استمع او استبين في الغالب الكلمات التي تستعملها .

بوسعك ان تتصور كل هذا ، انت الذي يعرفني ، وبكلمة كنت حينما وصلنا المنزل المقصود ونزلت من العربة اشبه برجل يعيش في حلم ، وقد استغرقته عوالم احلامه ، حتى لم اكد اشعر بانغام الموسيقى المنبعثة من اعماق القاعة المتلألئة بالانوار .

وتقدم لاستقبالنا م . اودران . وشاب يدعى ن.ن. (كيف احفظ هذه الاسماء) وكانا مراقصي شرلوت وابنة العم ، فاخذا بذراعيهما وصعدت بمراقصتي .

رقصنا في البدء رقصات (المنوويت) القصيرة، وقد حرصت ان ادعو اليها كل السيدات بالتوالي ، وكانت اذرع العابسات المتجهمات ابعدها استجابة للفراغ من هذه الرقصات .

وبدأت شرلوت مع رفيقتها رقصة انكليزية . وانك لتقدر مبلغ فرحي عندما جاء دورها ودخلت معنا الحلبة .

ليتك تراها وهي ترقص يا وليم !

انها لتفعل ذلك بكل جوانحها وروحها حتى لتخالها نغما واحدا منسجما وانها لتسترسل في رقصها وتترك لجسمها ان ينطلق ويتحرر رشيقا وسيما ، وكانها لا تفكر ولا تحس بشيء سوى الرقص . ولا شك ان العالم يمّحى في هذه اللحظة من حولها فلا يبقى لشيء غير الرقص ثمة وجود لديها .

دعوتها للرقصة الثانية فرضيت ان تمنحني الرقصة التي تليها واكدت لي

بصراحتها الحلوة انها تحب الرقصات الالمانية وقالت : « ان العرف في هذه الرقصات ان يلازم كل فارس مراقصته ، ولكن فتاي لايحسن (الفالس) وسيسره ان اعفيه منها ، وفتاتك لا تجيدها ايضا ولا تعنى بها . وقد لحظت في الرقصات الانكليزية انك تجيد (الفالس) فاذا اردت ان نرقص معا فاذهب واطلب الاذن من فارسي وساحدث آنستك من جهتي . »

وقبلت الاقتراح وهيأنا ان يسامر رفيقتي فارس شرلوت اثناء رقصنا وبدانا الرقصة الالمانية فاخذنا نلهو بحركات الاذرع المختلفة .

يا الله ! اي رشاقة وفتنة في حركاتها !

وبدأ (الفالس) فرحنا يدور بعضنا حول بعض كالاجرام السماوية . ونجم لاول وهلة بعض الفوضى والاضطراب لندرة المجيدين . فراينا التريث قليلا حتى تنطفىء جذوة الحماسة . ولم نلبث ان استولينا على الحلبة بعد انسحاب المبتدئين .

وعاودنا الرقص باندفاع جديد يصحبنا اودران ورفيقته .

لم اشعر في حياتي قط بمثل هذه الخفة . بل لم اعد احسبني انسانا تربطه صلة بالارض .

ان اضم بين ذراعي اجمل مخلوقة في الكون !

واطير معها كالعاصفة !

وارى كل شيء من حولي يمر ويميد ويفنى !

واشعر . . .

اني اصارحك يا وليم ، لقد اقسمت . .

فالمراة التي احبها واصبو اليها لن ترقص مع سواي ابدا ، حتى لو فنيتُ . اتفهمني ؟

ورقصنا رقصات خفيفة ونحن نسير في القاعة لنأخذ بعض الراحة . ثم جلست بعدها فذهبت احضر لها برتقالات كنت وضعتها على حدة ولم يكن قد بقي في المقصف غيرها ، فسرت لها كثيرا الا اني كنت احس لكل قطعة تقدمها الى احدى الجارات الفضوليات ، كأن خنجرا حادا يمزق جسدي .

وكنا في الرقصة الثالثة ثاني الازواج . وبينما كنا نمر في صفوف الراقصين وانا مرتبط الى ذراع شرلوت ، اهيم مفتونا بعينيها المتلألئتين صفاءً وطهرا ، حاذينا سيدة جميلة جذابة على بعد عهدها بالشباب ، فتطلعت الى شرلوت مبتسمة ومرت بنا وهي تشير باصبعها مهددة وتلفظت مرتين باسم البير ، بلهجة ذات مغزى .

فقلت لشرلوت : « من هو البير هذا ، ان لم يكن في سؤالي تجاوز؟ » وكانت تهم بالجواب عندما افترقنا لتنظيم السلسلة الكبرى .

وعندما مررت بها ثانية خلتني الحظ على جبينها علائم السهوم والتفكير . وقالت وهي تقدم لي يدها لنستروح النسيم معا : « لمَ اكتم عنك ، ان البير شاب نبيل ، وانا موعودة له .. »

ولم يكن النبأ جديدا على سمعي ، فقد حدثتني به الآنستان في الطريق ، ولكنه صدمني كحادث غير منتظر عندما وجدته يتصل بشخص عزيز كفتني لحظات لتجعل منه احب الناس اليّ ، فاضطربت حواسي واختلت باشكال الرقص واختلط كل شيء امامي حتى اضطرت شرلوت ان تقود

خطاي من ناحية الى اخرى . واستلزمت كامل بديهتها وحضور ذهنها لتعيد النظام الى نصابه .

ولم تكن الرقصة قد انتهت عندما بدأ البرق يشتد ويقوى، وكان يلمع في الافق منذ امد طويل و كنا نخاله برقا خلبا . وزاد قصفه حتى حجب عنا اصوات الموسيقى فخرج من الحلقة ثلاث سيدات وتبعهن المراقصون . ولم تلبث أن عمت الفوضى و كف العازفون .

وانه لطبيعي عندما يفاجئنا طارىء او خوف مباغت ، ونحن في حالة فرح ان يكون اقوى اثرا منه في غيرها ، للخلف بين الحالتين ولأن حواسنا المتنبهة تكون اكثر قابلية للتأثر واشد انفعالا . واني اعزو الى هذا تلك التقلصات الغريبة التي لمحتها على وجوه بعض السيدات .

ورأيت سيدة رصينة تنزوي في ركن وتدير ظهرها الى النافذة وتسد اذنيها . وجثت امامها سيدة ثانية وخبأت رأسها في حضنها . واقبلت سيدة ثالثة فاندست بين الاثنتين وهي تسكب الدمع وتضم الى صدرها شقيقتها الصغيرة .

ورغب بعضهن في العودة . ولم يبق لدى البعض الاخر من حضور الذهن ، (ولم يكن يدرين ما يفعلن) ما يكف عنهن جرأة الفتيان الطائشين ، وقد انهمكوا في اقتطاف الابتهالات المرفوعة الى السماء ، من شفاه الجميلات المستعطفات .

اما الرجال فقد نزل بعضهم يدخنون غليونهم بهدوء . وقبل باقي الحضور دعوة المضيفة الى غرفة شتوية ذات ستائر وسجف .

ولم نكد نلجها حتى قامت شرلوت تدعو الى لعبة نظمتها وصفت لها

الكراسي على شكل دائرة . واستجاب الشبان بطيبة خاطر رجاء الظفر ببعض المتع من رهان مكتسب . وقالت شرلوت : « سنلعب لعبة العد ، انتبهوا ، سادور حول الحلقة من اليمين الى الشمال دائما بينما يسمي كل منكم العدد الذي يقع عليه بسرعة النار الملتهمة . ومن تلكأ او أخطأ تلقى لطمة . وهكذا حتى نعد الالف . »

لكم كان منظرها لطيفا جذابا !

كانت تدور في الحلقة وذراعها ممدودة ، وبدأ اول اللاعبين فقال : واحد . وقال الثاني : اثنان ، والذي يليه : ثلاثة وهي تزيد سرعتها دائما.

واخطأ احدهم فتلقى لطمة وضحك آخر فنال منها حظه . وتلقيت انا لطمتين ، لحظت بسرور داخلي فائق انهما اشد من لطمات الآخرين .

وانفجر القوم بالضحك وساد الهرج فتوقفت اللعبة قبل تمام الالف . وتفرق القوم وانزوى الصحب شراذم ، وكانت العاصفة قد هدأت . وقالت لي شرلوت وانا اتبعها الى القاعة : « ان اللطمات انست الناس العاصفة وكل شيء آخر . » ولم اجد شيئا اقوله فمضت في حديثها : « اني شديدة الخوف والجزع ولكني تكلفت الجرأة لأشجع من حولي فاضحيت مقدامة حقا . »

واقتربنا من النافذة وكانت اصوات البرق ما تزال تهدر من بعيد ، والمطر ينهمر شيئا فشيئا فتنبعث له في الارض تمتمات لطيفة ، والهواء الرطب يحمل الينا دفعات من العطر تنفثه النباتات من حولنا .

وكانت شرلوت متكئة على مرفقها تسرح الطرف في الحقول . ورايتها ترفع عينيها الى السماء ثم ترد هما الي مليئتين بالدموع .

ووضعت يدها على يدي وقالت : ايه كلوبستوك ! (*)

فتمثلت النشيد السماوي الذي يشغل قلبها في تلك اللحظة ، ولم استطع صبرا ، فانحنيت على يدها الثمها وابللها بدموع عذبة محرقة .

وتأملت عينيها من جديد .

كلوبستوك ! ايها الشاعر الالهي ، ليتك ترى جلالك وتتذوق غمرة مجدك خلال هذه العيون .

وليتني لا اسمع طوال عمري من يدنس اسمك امامي .

١٩ حزيران

لم اعد ادري اين وصلت اخيرا بقصتي .

وكل ما اعرف ان الساعة كانت الثانية من الصباح عندما اويت الى فراشي .

ولو كان لي ان اتحدث اليك ، عوض الكتابة ، لاستبقيتك حتى الصباح .

لم اقص عليك ما جرى لدى عودتنا من الحفلة ، ولا ارى ان وقتي يتسع اليوم لمثل هذا .

لله ما كان اجمله مشرق فجر ، ونحن نجتاز الغابة المبللة المنتعشة والسهول الندية .

اما جارتانا فقد اخذتهما سنة الكرى . وسألتني شرلوت ان كنت لا اريد الاقتداء بهما ، وقالت : « ارجو الا تزعج نفسك من اجلي . »

(*) شاعر الماني اشتهر بملحمة شعرية استنفدت حياته كلها ، وتقع في عشرين نشيدا تغنى فيها بمجيء الانسان الاله ، ووصف فيها آلامه وصعوده ، وتعد نموذجا رائعا للاسلوب الكلاسيكي .

فاجبتها وانا احدق النظر في عينيها : « اوَ يغمض لي جفن وانا ارى هذه العيون مفتحة . »

وغالبنا النعاس حتى وصلنا باب المنزل . وجاءت خادمة ففتحت لنا بهدوء وطمأنت شرلوت الى ان اباها والاولاد نائمون وهم على احسن حال . وودعتها بعد ان استأذنت ان تسمح لي بزيارتها في اليوم نفسه فأذنت راضية .

وقد زرتها !

ومنذ ذلك الحين والشمس والقمر وكواكب السماء كلها تسير على ما تحب وتشتهي ، فانا لا ادري متى يكون ليل ومتى يجيء النهار . فقد امّحى وزال من حولي العالم .

٢١ حزيران

انني اقضي اياما سعيدة كتلك التي وعد بها الله الاتقياء الصالحين . ومهما يقع لي بعد اليوم فليس بوسعي ان اقول : « لم اتذوق طعم السعادة ، اقصى ما تكون سعادة في هذا العالم . »

انك تعرف وَلهي . لقد اتخذتها مقري وهي لا تفصلني عن شرلوت باكثر من نصف ميل .

اني لاشعر هنا بذاتي وكامل وجودي ، وانعم بكل ماخص به الانسان من هناء وسعادة على الارض .

اواه ! اكان يخطر لي وانا اتخذ وَلهم هدفا لنزهاتي ، انها قريبة من السماء الى هذا الحد ؟

فلكم رايت خلال مسيري الطويل في اعالي الجبال وفي السهول المنبسطة وراء النهر ، هذا البيت العزيز الذي يضم اليوم جملة اماني .

لقد فكرت ايها العزيز وليم في هذه الرغبة التي تنزع بالانسان الى التوسع واكتشاف الجديد والتيه والتشرد هنا وهناك . ثم فكرت في ميله الداخلي الى الانكماش والتقلص والاكتفاء بوجود محدود ، واقتفاء اثر العادة ، دون التفات الى يمين او شمال .

لله ما اعجب هذا !

فيوم جئت الى هنا ورحت اتامل من فوق الهضبة هذا الوادي الجميل ، لكم كنت اجد نفسي موزعة هائمة يتجاذبها الحنين كل صوب .

هنا الغابة الصغيرة ، اه لو استطيع التوغل في ظلالها الوارفة !..

وهناك الجبل الشامخ ، ليتني اتسنم ذراه واعانق الكون الفسيح .

وكنت اجوب هذه الاماكن واعود منها بلا شيء مما اتوخاه وآمله .

ان ارتياد المجاهل البعيدة ليشبه التجوال في المستقبل الآتي ، افق غامض عظيم يستقر امامنا فتتيه فيه عواطفنا ، كما تستغرق نواظرنا المرئيات فنصبو الى بذل وجودنا لنعب من لذائذ شعور بدييء ، اصيل ، لا حد له ولا غور .

اننا نعدو ونطير . والهفاه !

فعندما نصل ويصبح البعيد قريبا نرى الاشياء على حالها ونجد انفسنا في حلقة شقائنا المعهود . وتهفو قلوبنا ، من جديد ، الى السعادة التي افلتت منا .

وهكذا يعود الافاق المتشرد الى وطنه ، في النهاية ، فيجد في كوخه . الى جانب امراته ، في وسط بنيه ، وفي كدحه اليومي من اجلهم تلك

الغبطة التي راح يبحث عنها عبثا في العالم الفسيح .

وعندما اذهب ، لدى انبثـاق الصبح ، الى ولهمي العزيزة ، فاقطف الجلبان من بستان مضيفتي ، واجلس لانزع عنه القشور بينما اقرأ هوميروس ، ثم اتنـاول قدرا من المطبخ اضع فيه الجلبان على النار مع بعض الزبد واغطيه ثم اجلس لاحرك بين حين واخر جلباني العزيز ، تتجلى لخـاطري الحيـاة التي كان يعيشها عشاق بنيلوب (*) فاتخيلهم في العراء ، يذبحون الابقار والخنازير ويقطعونها ويشوونها بايديهم .

لا شيء يفعم قلبي بشعور الغبطة والفرح كدقائق هذه الحيـاة الابوية القديمة التي اضيفها ، دون ما تكلف بفضل الله الى لحمة حياتي .

ولشد ما انا سعيد بقلب يستطيع تذوق هذا الفرح البريء الساذج الذي يحس به الانسان عندما يضع على مائدته ملفوفة غرسها وعنى بهـا بنفسه . فهو لا يتمتع بالملفوفة وحدها . ولكنه يتمثل في خاطره صبيحة ذلك اليوم الذي غرسها فيه والامسيات الحلوة التي سقاها واللذة التي كان يشعر بهـا وهو يراها تنمو كل يوم .

٢٩ حزيران

جاء الطبيب اول امس من المدينة لزيارة وكيل الحاكم فراني مستلقيا

(*) هي امراة اوليس وام تليماك ، في قصص الملاحم والاساطير اليونانيـة وقد غاب عنها زوجها عشرين سنة وتقدم اليها العشاق الخاطبون فاستمهلتهم على بابها حتى عاد اوليس . وكانت تعدهم ان تنتخب من بينهم زوجا عندما تنتهي من نسيجها . وكانت تفتق في الليل ما تنسجه في النهار . واوليس احد ابطال اليونان الذين اشتهروا في حرب طروادة . وموضوع الاوديسة المنسوبة الى هوميروس رجوع اوليس الى وطنه .

على الارض يحيط بي اطفال شرلوت ، بعضهم يحبو فوقي وبعضهم يقرصني وانا ادغدغهم ونحدث بكل هذا ضوضاء هائلة .

اما الطبيب وهو اشبه بدمية عالمة ، وشغله الدائم خلال الحديث بسط ثنيات كمه وابراز حوصلته الضخمة ، فقد راى في هـذا المشهد ، كما لحظت على سيمائه ، ما يحط بكرامة الرجل العاقل . ولكني لم احفل به وتركته يخوض ويبحث اعمق المشـاكل بينما كنت اعيد بنـاء قصر من الورق هدمه الصغار .

ولم يفته ان يقول لدى عودته ، لمن اراد الاصغاء اليه ، ان اولاد نائب الحاكم سيئو التربية وان ڤرتر سيفضي بهم الى الدلع تماما .

اجل ، يا صديقي . ليس في العالم اعز واقرب الى قلبي من الاطفال . فعندما اتامل هذه الاحياء الصغيرة فاجد فيهم بذرة الفضائل والمواهب التي ستنمو فيهم مع الايام ، واكتشف في عنـادهم ، ما سوف يضحي في الغد ثباتا وقوة عزم وخلق ، وفي خبثهم وطيشهم الطبع الخفيف المرح الذي يعاونهم على اجتياز مزالق الحياة وصخورها ، عندما اجد كل هـذا لديهم بريئا خالصا ، اردد كلمات السيد المسيح : « ان لم تصبحوا كاحد هؤلاء . . »

الا اننا ايها الصديق نعامل هؤلاء الصغار وهم اشباهنا الاكفاء ، وكانهم رعايانا . وكان احرى بنا ان نجعلهم لنا قدوة ومثالا .

يجب الا يكون لهم ارادة ! اوليس لنا مثلها ؟

واين ميزاتنا اذن ؟ الاننا اكبر سنا وارجح عقلا .

يا اله السماء !

انك لترى على هذه الارض اطفالا كبارا واطفالا صغارا ، ولا شيء

غير هذا . وقد قال لنا ابنك الحبيب ، منذ دهر طويل ، ايها احب اليك. ولكنهم يؤمنون به ولا يصغون اليه (وتلك حقيقة قديمة) وينشئون ابناءهم على غرارهم .

وداعا يا وليم . كفاني هذيان في هذا الموضوع .

١ تموز

اني لاحس اليوم في قلبي السقيم ، كاي مريض يذوي على فراشه ، بكل ما تستطيعه شرلوت نحو المريض المضنى .

انها ستقضي بضعة ايام في المدينة ، لدى امراة فاضلة يرى الاطباء انها تدنو من نهايتها وقد تمنت ان تجد شرلوت الى قربها في لحظاتها الاخيرة .

وقد ذهبت في الاسبوع الماضي ازور معها قسيس ناحية ... وهي قرية تقع بين الجبال على بعد ميل من وَلهِم . وصلنا حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر وكان مع شرلوت اختها الصغيرة .

ووجدنا بهو الدير المظلل بافياء شجرتين كبيرتين من الجوز فشاهدنا القس العجوز جالسا على مقعد امام باب المنزل فلما راى شرلوت بدا كان حياة جديدة سرت فيه ، فنسي عصاه ذات العقد واندفع نحوها ، فاسرعت شرلوت ترجوه الجلوس وجلست الى جانبه تبلغه تحيات ابيها ، ثم قبلت ولده الصغير ، على دمامته وقذارته .

لو رايتها يا وليم كيف كانت تعنى بالشيخ وترفع صوتها لاسماع اذنه الموقورة . وكيف تصله بانباء الذين باغتهم الموت من الفتيان الاقوياء ، وتثني على مياه كارلسباد وتحمد له عزمه على تمضية الصيف القادم فيها ،

وكيف كانت تؤكد له انه يبدو اكثر حيوية ونشاطا منه في السابق .

وكنت في هذه الفترة اقدم واجب التحية لامراة القس . وكان زوجها بادي الغبطة فلما اطريت امامه جمال شجرتي الجوز وظلها اللطيف اخذ يجهد ليسرد علينا تاريخها : « اننا لانعرف من غرس الشجرة الكبيرة ، قيل هذا القس وقيل غيره . اما الشجرة الصغيرة فهي من عمر امراتي : خمسون سنة في تشرين الآتي . فقد غرسها والدها في صبيحة الليلة التي ولدت فيها . وكان يحب الشجرة حبا جما لاينقص عنه بالطبع حبي لها انا ايضا .

وكانت امراتي جالسة على خشبة ، تنسج في ظلها عندما دخلت هذه الساحة لاول مرة منذ سبعة وعشرين عاما ، وانا تلميذ بائس . »

وسألت شرلوت عن ابنته فقيل لنا انها خرجت الى الحقل مع المستر شميت لرؤية العمال .

وعاد الشيخ الى حديثه فذكر لنا كيف اصبح موضع عطف سلفه وكيف اعجبت به ابنته وكيف اصبح مساعدا لابيها ثم خلفا له .

ولم يكد ينتهي من حديثه حتى راينا ابنته يصحبها المستر شميت ، عائدة من ناحية الحديقة فخفت تستقبل شرلوت استقبالا وديا حارا . وارى ان اصارحك يا وليم ، انها وقعت من نفسي موقعا حسنا . فهي فتاة سمراء حلوة ، لطيفة القد تطيب معها الحياة في هذه الحقول .

اما حبيبها (وقد اعطيته هذه الصفة لاول وهلة) فهو رجل مهذب ولكنه شديد البرود ولم يشترك معنا في الحديث رغم ان شرلوت كانت تستثيره اليه دون انقطاع . وقد ساءني منه ان يكون تخلفه ، كما لحظت على هيئته ، لنزوة او انقباض في النفس ، اكثر منه لعجز في التفكير .

وقد اتضح لنا هذا بعد قليل . ففي نزهة قصيرة قمنا بها كانت فريدريك تسير الى جانب شرلوت واتفق لها ان تسير الى قربي بعض الحين فرايت وجه شميت ، وهو اسمر قاتم بطبيعته ، يزداد تجهما وقطوبا . ولحظت ذلك شرلوت فجذبتني من يدي واشارت اليّ ان اكون اقل ظرفا وتلطفا مع فريدريك .

لا شيء يثيرني كرؤية الناس يسببون الاكدار والمتاعب بعضهم لبعض . وانا اتألم خاصة اذ ارى شبابا في ربيع الصبا وزهرة العمر ، حري بقلوبهم ان تظل متفتحة لتقبل الملذات كلها ، وهم يكدرون بجماقاتهم صفاء ايامهم الجميلة القليلة على الارض ، الا ان يدركوا ، بعد فوات الاوان ، انهم فرطوا بما لا يعوض .

وعندما عدنا في المساء وجلسنا نتناول اللبن في باحة الدير طاف بنا الحديث حول مسرات الحياة وهمومها فلم اتمالك من استنباح الفرصة للحمل بشدة على ذوي النفوس المنقبضة .

قلت اننا كثيرا ما نشكو من قلة ايامنا السعيدة وكثرة ايامنا البائسة ، ويبدو لي ان شكوانا غير محقة على الاغلب .

فلو ان قلوبنا كانت متفتحة كل يوم لتقبل ما يمنحنا اياه الله من خير ومسرة لتوفر لنا قدر من القوة نستطيع به تحمل الاكدار والمصاعب لدى وقوعها .

فقالت امرأة القس : « ولكننا لا نملك السيطرة على مزاجنا . ولكم يتبع هذا المزاج حالة نفوسنا . فطبيعة الجسم هي التي تفرض علينا الكآبة والحزن . فاذا شعرنا بما يؤلم ، نجد ان لا شيء يستطيع ان يسرنا . »

وقد اقررت لها بذلك وقلت : « اننا نعالج امر الكآبة والانقباض باعتبارهما حالة مرضية ، فلنتساءل ان كان ثمة وسيلة لشفائها . »

واجابت شرلوت : « ارى اننا نستطيع القيام بشيء على الاقل ، كما خبرت ذلك بنفسي ، فعندما يكدرني شيء واشعر بالحزن اسرع الى التنزه في الحديقة ولا اكاد اغني لحنين او ثلاثة من الحان الرقص حتى تتبدد همومي . » فقلت : « هذا ما اردت قوله فانقباض النفس يشبه الكسل وهو على التحقيق نوع من الكسل ، فطبيعتنا كثيرة الميل الى الخمول . فاذا كانت لدينا قوة للنضال تم العمل في يسر ووجدنا فيه لذة حقيقية . »

وكانت فريدريك تصغي اليّ بانتباه فهب شميت يعترض : « ولكننا لا نستطيع السيطرة على نفوسنا والتحكم في عواطفنا . » فأجبته : « اننا هنا امام عواطف بغيضة يود كل منا ان يتخلص منها ، ونحن لا نعرف مدى قوانا قبل ان نضعها موضع الاختبار والتجربة . فالمريض يستشير كل الاطباء ولا يرفض اشد الانظمة الصحية قسوة واكثر الادوية مرارة ليستعيد صحته الغالية . »

ورأيت القس الشيخ يجهد لمشاركتنا في الحديث فرفعت صوتي ووجهت اليه الكلام : « ان الوعاظ يتناولون عادة كل المساوىء والرزائل . ولا ادري لم يهملون في خطبهم محاربة الانقباض . »

فأجاب الشيخ : « ان هذا من شأن وعاظ المدن ... فسكان القرى لا يعرفون الانقباض . على كل ليس من بأس ان نقول في هذا شيئا من وقت الى آخر فسيكون درسا يفيد منه على الاقل ، سيداتنا وحضرة وكيل الحاكم . » فضحك الجميع واسترسل القس في الضحك حتى اخذته

نوبة من سعال قطعت حديثنا زمنا . واستأنف الشاب : « لقد دعوت انقباض النفس رذيلة . ويبدو لي في هذا القول مبالغة . » فقلت له : « كلا ، ان كان ما يسيء الينا والى من حولنا يستحق هذه التسمية .

الا يكفي اننا لا نستطيع ان يسعد بعضنا بعضا حتى يجهد كل منا الى اختلاس اللذة التي يشعر بها الآخر في اعماق قلبه .

سم لي رجلا منقبضا يملك من القوة ما يستطيع بها اخفاء انقباضه ، حتى يتحمل اثقاله لوحده ولا يمكر صفاء الآخرين .

وانه لحري بالكآبة ان يكون منشؤها سخط على النفس ونقمة داخلية سببها الشعور ببخس قيمتنا ، يضاف الى ذلك حسد يثيره الغرور . فنحن نرى من حولنا اناسا سعداء لايدينون لنا بشيء من اسباب سعادتهم . فنجد ذلك شيئا لا يحتمل . »

وابتسمت شرلوت لحرارة عباراتي . ولمحت عبرة في عيون فريدريك اثارتني ان اكمل فصرخت : « تعسا لاولئك الذين يتخذون من سلطانهم على بعض القلوب وسيلة ينهبون بها المسرات البريئة التي تنمو في هذه القلوب من تلقاء ذاتها . فان تحف العالم ومجاملاته كلها لاتعوض لحظة فرح يسممها طاغ مستبد ، بحقده وسلوكه البغيض . »

واهتاج قلبي في تلك اللحظة وطغت على خاطري ذكريات ممضة تدافعت لها الدموع في عيني فقلت : «لو قال كل منا لنفسه كل يوم : ان شأنك مع اصدقائك ، ان تترك لهم افراحهم وتزيد في سعادتهم بمشاركتهم فيها ، اذ ليس في مقدورك ان تسكب على قلوبهم قطرة عزاء عندما تجيش بصدورهم الهموم الشديدة وتعصف بهم الاحزان القاصمة .

وعندما تسقط تلك الشقية التي سممت اجمل ايامها ، متهالكة على سرير الموت ، فتراها في كآبتها المظلمة ويأسها القاتل ممددة امامك ، ترفع الى السماء عيونا منطفئة ، ويجف العرق على جبينها الباهت ، وانت واقف امام سريرها كالمجرم المحكوم ، لا تملك ، على سلطانك ، لآلامها دفعا ، تتمزق نفسك حسرة وانت تعترف بعجزك ان تمد هذه المحتضرة البائسة بما يدخل على قلبها قبسا من عزاء او امل .

وبدت لخاطري ، بكل مجالي قوتها ، ذكرى حادثة مماثلة شهدتها فمسحت عبرات ترقرقت في مآقي وغادرت المجلس .

واعادني الى نفسي صوت شرلوت تناديني : « هيا لنذهب » .

وراحت في الطريق تلومني على هذه النار التي اوقد شرارتها دائما . وحذرتني من ان اكون لها طعما . وان يجب علي ان اتئد واهادن نفسي اني ، لمن اجلك اود الحياة ، ايها الملاك الحبيب !

٦ تموز

ما تزال شرلوت الى جانب صديقتها المحتضرة . وانها ابدا ، هي نفسها ذلك الكائن الشفوق الرحيم ، تلطف نظراته الآلام وتهب السعادة والرجاء.

راحت تتنزه مساء امس مع شقيقتها ماريان والصغيرة اميلي. وعرفت بخبر هذه النزهة فلحقت بهن ومشينا معا .

وبعد ان سرنا نحو ميل ونصف رجعنا صوب المدينة ووصلنا الى ذلك النبع العزيز علي ، والذي اضحى الآن اعز واغلى الف مرة على قلبي .

وجلست شرلوت على الحائط الصغير ولبثنا وقوفا امامها ورحت اتأمل

الاشياء من حولي واستعيد ذكرى امسي القريب ، يوم كان قلبي خلوا وحيدا . وهتفت لنفسي : « منذ ذلك الحين لم اعد انعم بطراءتك الحلوة ايها النبع الحبيب ، ولطالما مررت بك مسرعا فلم التفت اليك . »

ونظرت الى اسفل الدرج فرأيت اميلي الصغيرة وبيدها قدح ماء تصعد به بدقة وحذر وكنت اتأمل شخص شرلوت ، وما استودعته من عواطف وامانى .

وجاءت اميلي بقدحها فأرادت ماريان ان تأخذه منها فصرخت الصغيرة وعلى وجهها معان لطيفة محببة : « لا ، شرلوت هي التي تشرب اولا . »

واستخفني ما وجدته في قولها من صدق ومحبة ولم اجد وسيلة للتعبير عن عاطفتي الا بحمل الصغيرة بين يدي وتقبيلها بشوق وقوة ، فراحت تصرخ وتنتحب .

وقالت شرلوت : « اوجعت الصغيرة . » ووقفت مبهوتا ..

وتابعت شرلوت وهي ممسكة بيد اميلي تنزل بها درج النبع : « تعالي سريعا واغسلي وجهك بالماء البارد فلن يقع لك شيء . »

ووقفت اتطلع الى الطفلة بأي حرص وجد تفرك وجهها بيديها الصغيرتين المبللتين وهي مؤمنة ان ماء هذا النبع العجيب يزيل عنها كل قذر ورجس ويقيها عار لحية مشينة تنبت لها . وشرلوت تقول لها عبثا : « كفى . كفى يا اميلي » والصغيرة منهمكة غسلا وفركا وكأنها ترى ان الاكثار منها اضمن لاتقاء ما تخشاه .

اؤكد لك يا وليم اني لم احضر طيلة حياتي حفلة عماد وانا على مثل هذا الاجلال والتهيب .

وعندما صعدت شرلوت حدثتني نفسي ان اجثو امامها واسجد لها كأنني امام نبي محى آثام امته وغسل اوزارها .

ولم اتمالك في المساء من نقل هذا المشهد البريء الى رجل كنت اظنه رقيقا حساسا لذكائه واتقاد ذهنه ، ولكني أخطأت التقدير . قال لي ان شرلوت قد ارتكبت خطأ جسيما ، اذ لا ينبغي ان يؤمن الاطفال بهذه الترهات ، وان مثل هذا من شأنه ان يولد فيهم اوهاما واباطيل لا نهاية لها ويفتح امام اذهانهم طريق الخرافة التي يجب ان نقيهم شرها سلفا .

وتذكرت ان الرجل كان قد عمد احد اولاده قبل اسبوع فتركته يقول ما يريد . وبقيت في قرارة نفسي امينا للحقيقة . فنحن يجب ان نطرف الاطفال بهذه الخرافات ، شأن الله تعالى فهو لا يتيح لنا ان نهنأ ونسعد الا عندما يهيء لنا اوهاما حلوة نتيه في بيدائها .

٨ نوفمبر

يا لنا من اطفال ! اي شأن نعلقه على نظرة ! يا لنا من اطفال !

كنا قد ذهبنا الى وَلهِم ، وكان السيدات قد خرجن في مركبة ، وخلتني المح خلال النزهة ، في عيني شرلوت السوداوين .. عفوا ! كان يجب ان ترى هذه العيون يا وليم !

ولا اطيل عليك فقد دب في جفني الكرى ، فلدى عودتنا صعد السيدات العربة واحطنا بها نحن ، الفتى و ، سلستاد ، اودران ، وانا . واقبلت سيداتنا يتحدثن الى هؤلاء الفتيان المليئين خفة وطيشا .

وكنت افتش عن عيون شرلوت .

اواه ! كانت تتنقل من هـذا الى ذاك . اما انا . انا المشغول بها وحدهـا بكل جوانحي ، فلم تكن تتجه اليّ . قلبي يبشها الف تحيـة ، وهي لا تنظر اليّ ابدا . وراحت العربة فبلمت اجفاني دمعة كبيرة وانا ارافقها بناظري .

ورأيت شعر شرلوت يخرج من باب المركبة وتطل لتنظر .

لهفاه ! اكانت تنظر اليّ انا ؟

اني لاطفو ايها الصديق على بحر هذا الشك . هنـا عزائي . فربما ! ربما كانت عيونها تبحث عني .

ليلتك سعيدة يا رليم . اواه ! يا لي من طفل !

١٠ تموز

اي وجه من الحمق انقمص في المجتمع عندما يتحدثون عنها ! لو رأيتني حين يسألني احدهم جادا ، ان كانت شرلوت تعجبني !

تعجبني ! اني لاكره هذه الكلمة حتى الموت . فأي رجل يكون هذا الذي تعجبه شرلوت ، ولا تملأ وجوده وتشغل حواسه كلها .

تعجبني ! سألني احدهم مرة ان كان اوسيان (*) يعجبني !

(*) من شعراء ايكوسيا الجوالين : (Les Bardes) عاش حسب الاسطورة، في القرن الثالث الميلادي ، وهو ابن فنجال ملك مورڤن . وقد نشر باسمه الكاتب الايكوسي (ماك فرسن) مجموعة شعرية سنة ١٧٦٠ ادعى ترجمتها عن اللغة الغالية القديمة وثبت انها تقليد للاصل . ونشرت اشعاره الاصلية سنة ١٨٠٧

٨ ١١ تموز

السيدة م جد مريضة . وانا اصلي من اجل حياتها لأني اتألم لألم شرلوت . اني اصادف شرلوت احيانا لدى صديقة لها . وقد قصت علي اليوم قصة غريبة . فالعجوز م بخيل دنيء نغص حياة امرأته وظل يضيق عليها الاسر طيلة حياتها . ولكنها عرفت دائما كيف تدبر امرها . وقد قنط الاطباء من شفائها فدعت زوجها قبل ايام بحضور شرلوت وقالت له : « ارى من واجبي ان اصارحك بأمر ، لو ظل مكتوما بعد موتي ، لأحدث شقاقا وكدرا . لقد كنت ادير شئون البيت حتى الآن ، بما استطعت من تدبير واقتصاد ، ولكني التمس عفوك فقد خدعتك مدة ثلاثين سنة . لقد حددت لي في اول عهد زواجنا مبلغا صغيرا لتسديد نفقات الطعام وغيرها من الحاجات . وقد اتسع نطاق البيت وامتدت تجارتنا ولكني لم استطع ان اظفر منك بأية زيادة في النفقات . فقد خصصت لها سبع فلورينات في الاسبوع . ورضخت ، الا اني كنت اتناول حاجتي من صندوقك كل اسبوع . ولم اكن اخشى ان تؤخذ امرأة بتهمة السرقة في بيتها .

وانا لم اختلس لنفسي شيئا . وكان بوسعي ان اذهب الى ربي بدون هذا الاعتراف وانا واثقة من نفسي . ولكن المرأة التي سوف تخلفني في ادارة البيت لن تستطيع تدبير الامر بالقليل الذي تعطيه . وستصر انت مؤكدا ان امرأتك الاولى كانت تكتفي بهذا القدر . »

وتحدثت الى شرلوت عن عماوة الفكر البشري . اذ لايصدق الا تأخذ الزوج الظنون . فكيف تغطي سبع فلورينات نفقات تتطلب ضعف هذا المبلغ ؟

ولكني تعرفت الى اشخاص كثيرين لا يدهشهم ان يروا في بيوتهم جرة الزيت العجيبة .

١٥ تموز

لا ، لست مخدوعا ، اني لأقرأ في عينيها السوداوين صدق انشغالها بي واهتمامها لقدري . اجل اني لاشعر .. واستطيع في هذا ان اثق بقلبي اشعر .. هل تسعفني الجرأة فاتلفظ بهذه الكلمة التي تبلغ عندي قيمة السماء ؟ انها تحبني !

انها تحبني ! ولكم اراني عزيزا على نفسي ، وانا اجرؤ ان اقوله لك انت ، وستفهمني .. لكم اعبد ذاتي مذ تحبني !

اهو ادعاء واجتراء ، ام انا صادق الشعور بوضعي ؟ اني لااعرف رجلا اخشى نزاله في قلب شرلوت ، ومع هذا عندما تتحدث عن خطيبها بكل هذه الحرارة والاندفاع ، اجدني كمن تنزع عن صدره الاوسمة والمراتب ويقسر على تسليم سيفه .

١٦ تموز

اي نار تسري في عروقي كلما اتفق ان لمست يدي بيدها ، او التقت اقدامنا تحت المائدة .

اني لارتد كأني مسست نارا . ولكن قوة خفية تجتذبني من جديد فيأخذني دوار وتضطرب حواسي كلها .

اواه ! انها لاتدري لفرط براءتها وطهرها كم تعذب قلبي بهذه المداعبات الطفيفة تقوم بها من غير كلفة .

فعندما تضع يدها على يدي خلال الحديث ، وتقترب مني حتى لتكاد انفاسها تصل شفتيّ ، اشعر بأني اميد وانلاشى ، كما لو سحقتني صاعقة .

اه يا وليم ! لو اجرؤ مرة .. امام هذا الطهر الالهي وهذه الثقة ؟ انك تفهمني ! كلا ، ان قلبي لم يبلغ هذا الفساد ، ولكنه ضعيف ، جد ضعيف ، الا يكون هذا دليل فساده ؟

انها مقدسة عندي ، وكل رغبة فيّ تخرس امامها . ولا ادري ما اكون عندما اجدني الى قربها . حتى لكأن روحي تسيل وتجري في اعصابي كلها .

ان لها لحنا تعزفه على البيان بطهر ملائكي ، وهو لحنها المفضل لاتكاد تعزف منه مقطعا حتى تزول آلامي وتتبدد هواجسي وافكاري القاتمة . ان القوة السحرية العجيبة التي كان يعزوها القدماء للموسيقى لم تعد متهمة عندي ، فان لهذا اللحن البسيط سلطانا عظيما على قلبي . ولكم تحسن اختيار الوقت الملائم لتوقيعه في لحظات اجدني قادرا فيها ان اقذف رأسي بالرصاص فلا تلبث ظلمات نفسي ان تنقشع واردد انفاسي بانطلاق وحرية .

١٨ تموز

وليم ! ما قيمة العالم كله في نظر القلب ، بدون الحب ؟ انه لأشبه بالفانوس السحري من غير ضوء . فاذا ولجته الشعلة ارتسمت على اللوحة البيضاء الصور المختلفة .

حتى ولو لم يكن هذا سوى صور واشباح ، فانها تدخل السعادة الى

قلوبنا حين نقف امامها يقظين مبهوتين كالاطفال ، نتطلع الى هذه المشاهد العجيبة .

لم استطع الذهاب لرؤية شرلوت اليوم ، فقد احتجزني مجلس لم يكن للتخلص منه سبيل ، فماذا اعمل ؟

بعثت الى شرلوت بخادمي كي اجد الى قربي على الاقل ، من رآها هذا اليوم .

يقولون ان الحجر البولوني ، اذا عرض للشمس امتص نورها وشع مضيئاً في الليل بعض الزمن ، وتلك حالي مع هذا الصبي ، فمجرد ان تكون عينا شرلوت قد وقعتا على محياه وخديه وعلى ازراره وياقته ، قد جعل هذه الاشياء عندي غالية مقدسة ، حتى لتأبى علي نفسي ان ابادل الغلام بألف دينار . ان وجوده يبهجني !

وقاك الله شر الهزء والضحك يا وليم ! تقول انها اوهام واخيلة . وهل تكون سعادتنا على الارض غير اوهام واخيلة .

١٩ تموز

سوف اراها ! ذاك اول ما اهتف به في الصباح عند يقظتي ، بينما اتأمل صفيا آمنا ، الشمس البهية المشرقة .

سوف اراها ! وليس لي طوال يومي امنية غيرها .

٢٠ تموز

ترى لي ان اصحب السفير . . ولكني اخالفك في ما ترى ، فلست

احب ان اكون تابعا لاحد . والناس يعرفون كلهم ان عشرة هذا الرجل ثقيلة لا تحتمل .

تقول ان امي تود ان ترى لي عملا شاغلا ، هذا يضحكني ، الست آن في شغل اذن ؟ واي فرق في الواقع ان اعمل في تعداد الجلبان او العدس ؟ ان كل ما في الحياة يفضي الى سخافات وعدم . وانه على التأكيد لاحمق مأفون ذلك الذي ينهك نفسه في العمل من اجل المال او الجاه ، كل ما عداه ، دون ما حاجة او هوى ، بل ابتغاء مرضاة الناس .

٢٤ تموز

انك لتحرص راغبا الا اهمل الرسم . وقد كان حريا بي ان الزم الصمت فلا اقول لك ان الرسم لم يعد يشغلني منذ وقت طويل .

لم اكن في حياتي قط اسعد مني اليوم ، ولم تكن صلتي بالطبيعة وشعوري بها ، حتى النبتة والحصاة الصغيرة ، اكثر امتلاءً وقوة منه عندي الآن . الا اني على هذا ، لا احسن التعبير . وذاكرتي اضحت على درجة من الضعف والوهن حتى لأجد الاشياء تسبح وتهتز امامي فلا استطيع ان اثبت لها اطارا .

ولكن يخيل لي ان النجاح ايسر لو كان لدي خزف او شمع اصوغ به آيات التعبير عما يخالجني . وان استمر بي الحال فسأستعمل الصلصال والخزف ، ولو لم يكن لي ان اصنع منه غير كرات ..

حاولت ثلاث مرات رسم صورة شرلوت ، ولكني ارتددت خجلا . والذي يحزنني اني كنت منذ قليل ، اتبين دقائق ملامحها . واضطررت

ان اكتفي بخطوط رئيسية تؤدي رسمها على وجه التقريب .

٢٥ تموز

اجل ، سأفي بما وعدت يا شرلوت . على ان توكلي اليّ دوما بمهام اقضيها . ولكني التمس منك امرا : لا تجففي رسائلك بالرمل ، فقد حملت اليوم رسالتك بلهفة الى شفتي فانجرس الرمل تحت اسناني .

٢٦ تموز

عاهدت نفسي مرات كثيرة الا اراها الا غرارا . ولكن كيف السبيل للوفاء بالعهد . اني لأهن كل يوم امام سلطان الغواية .

اهتف لنفسي مقسما في المساء : « لن تراها غدا » فاذا جاء الغد وجدت لي باعثا لا قبل لي بدفعه يدعوني الى رؤياها .

انها تقول لي احيانا : « الا تأتي غدا . » ومن يستطيع ان لا يأتي ؟ او تكلفني بمهمة فأرى ان احمل اليها الجواب بنفسي . وعندما ارى النهار صحوا جميلا اذهب الى وَلهِم ، ثم لا اجد من وَلهِم ما يفصلني عن شرلوت سوى ميل ونصف . واجدني قريبا من جوها ، فيجتذبني الجوار واذهب !

كانت جدتي تحدثنا عن الجبل الممغنط كيف تتفكك السفن التي يشتد دنوها منه ويتطاير حديدها فيسقط ملاحوها في اليم بين الالواح المتداعية .

٣٠ نموذج

سوف ارحل ، فقد عاد البير . انه لما يتجاوز حدود احتمالي ان اراه ، حتى لو كان افضل الناس واكرمهم جميعا ، ولو كنت اعترف له بالتفوق علي من سائر الوجوه ، ان اراه يمتلك امام ناظري هذه الآية من الكمال والفتنة .

يمتلك ! كيف يا صديقي ، انه خطيبها الموعود ، وقد عاد اليها .

ان البير رجل شريف طيب ، وهو اهل لان يحب .

وقد كان من حسن حظي ، اني لم اشهد ساعة لقائه ... فقد كان خليقا بقلبي ان يتمزق .

ولكنه كريم النفس ، لم يقبل شرلوت مرة واحدة امامي ، جزاه الله عني خيرا .

انه يفرض عليّ حبه لمجرد هذا الاحترام يبديه نحو شرلوت ، ويخيل لي أنه يسر لرؤيتي وان كنت ارى ذلك من صنع شرلوت اكثر منه صادرا عن شعوره . والنساء في هذا جد بارعات ، يدركن ما لهن من مصلحة في ان تأتلف على حبهن قلوب المتعبدين . على اني لا انكر البير حقه من الولاء والتقدير . فهدوء نفسه وصفاؤها الكامل يبرز من شأن قلقي وهذه الحدة الظاهرة في طباعي .

وهو رجل عاطفي حساس بقدر ما يمتلك في شرلوت ، وليس لانقباض النفس سلطان عليه . وانت تعرف مبلغ كرهي لهذه الرزيلة البشرية .

والبير يجد فيّ رجلا له بعض المزايا فتعلقي بشرلوت واهتمامي بكل

ما يمسها او يتعلق بها يعظم من شأن ظفره فيزداد لها حبا . ولا ادري ان كان لا يرهقها احيانا ببعض الغيرة . على اني لو كنت مكانه لما استطعت التخلص بسهولة من شر هذا الشيطان .

ومهما يكن ايها الصديق فان السعادة التي كنت استمتع بها الى قرب شرلوت قد زالت من الوجود . ايكون هذا جنونا وسخفا ؟

ماذا تهم الاسماء ؟ ان الاشياء تتحدث من ذاتها . ولقد كنت اعلم ، قبل وصول البير ، ما اعلمه اليوم ، كنت ادرك ان ليس لي امنية انسجها حول شرلوت ، فكنت احتبس رغباتي ، جهد ما يستطاع خنق الرغبات امام كل هذه الفتنة ...

واليوم ، يعجب الاحمق المعتوه ويفتح عينيه ملء احداقها ، اذ جاء البير ينتزع منه غادته .

اني لاصرف باسناني غيظا واسخط على اولئك الذين يريدون لي ان ارضخ واذعن ، لان الاشياء لايمكن ان تسير على غير هذا المنوال . الا بعدا لهؤلاء السخفاء !

واني لاسرح واجوس خلال الغابة ، فاذا عدت الى قرب شرلوت ورايت البير الى جانبها في الحديقة الصغيرة تحت مهد العريش ، وشعرت بوجوب الوقوف عند هذا الحد ، احسست بمس من جنون خليق ان يشد له وثاقي وأتيت الوانا من ضروب الشذوذ والحماقة حتى قالت لي شرلوت اليوم : « اتضرع اليك يا ڤرتر وانا شدك الله ان تكف عن مثل مشاهد الامس ، انك لتضحي مخيفا بمثل هذا المرح الجنوني. »

ولا اخفي عنك ، اني اترقب غياب البير (دع هذا في سرك) فاسرع اليها . ولا تسل عن فرحي حين اجدها وحدها .

٨ آب

عفوك ايها العزيز وليم ، لاتعتقداني عنيتك عندماقلت عن الذين يريدون لنا ان نذعن لمصائب القدر ، انهم اجلاف لايحتملون . والحق لم اكن اتصور ان يكون لك مثل هذا الرأي . الا انك مصيب يا وليم . ولكن اسمح لي بملاحظة ، ففي هذا العالم يندران ترضخ الحوادث كلها لحكم لا او نعم ، ففي عواطفنا وطرائق سلوكنا من وجوه الاختلاف والتمايز مثلها ما بين الانف الاقنى والانف الافطس .

وعلى هذا لن يسوءك ، مع اعتراف بصحة حجتك ، ان اتهرب من هذا الحصر الذي تردني اليه ، تقول : « اما ان يكون لي بعض الامل في النجاح لدى شرلوت اولا يكون ، فاذا كان الاحتمال الاول وجب علي السعي لتحقيق املي والوصول الى بغيتي ، وفي الثاني تريد لي ان استثير شجاعتي وهمتي وانقذ نفسي من شر هذه العاطفة المشؤمة التي تنهك قواي وتهد عزمي . » وهذا كلام جميل ياصديقي . ولكن تأمل معي هذا المريض المضنى ، تذوي به العلة فتنطفيء ببطء شعلة حياته ، هل نطلب اليه ان يضع بضربة خنجر حدا لآلامه ؟ والالم الذي يتأكل في صدره ويلتهم قواه ، الا ينتزع منه الشجاعة اللازمة للخلاص من هذا الالم ؟

بوسعك في الواقع ان ترد علي بمثال آخر : « من لا يؤثر ان تبتر ذراعه على ان يعرض حياته للخطر من جراء الخوف والتردد . »

ولكن كفانا تراشق بالأمثال والتشابيه .

اجل يا صديقي ، انه لتنتابني احيانا ثورة من الاندفاع الوحشي ، فاود... لو اعرف فقط الى اين ؟ اذهب ...

مساء اليوم نفسه

وقعت يدي اليوم على مذكرتي اليومية بعد ان اهملتها زمنا ، فادهشني ان اراني اسير في طريقي خطوة خطوة على علم وبينة .

ان وضعي ليبدو بجلاء . ولكني لا افتأ اسلك مسلك الاطفال ، ارى كل شيء واضحا امامي ، وليس ثمة بادرة لارتداد او اصلاح .

١٠ آب

كان بوسعي ان انعم بحياة رغدة سعيدة لو لم اكن مخبولا ، اذ يندر ان تجتمع لاسعاد انسان ، مثل ظروفي الحاضرة . ان في وسع القلب وحده اذن ان ينسج لنفسه برد سعادته او شقائه . فانا عضو لاسرة كريمة يحنو علي الوالد حنوه على بنيه ، ويحبني الاطفال محبتهم لابيهم ،

ثم شرلوت : ! . .

والبير الشهم الذي يخلص لي الود ولا يعكر صفو سعادتي باي مظهر اكتئاب . انه يستقبلني بحرارة الصديق العطوف ويجد فيّ احب الناس اليه بعد شرلوت ، وانها للذة ممتعة ان تسمع الينا ونحن نسير في نزهتنا ونتحدث عن شرلوت . ليس بوسعك ان تتصور موقفا ابعث منه على الضحك . ومع ذلك ففي بعض اللحظات تترقرق الدموع في عيني .

وكثيرا ما يحدثني البير عن ام شرلوت الفاضلة ، كيف وضعت البيت والاطفال امانة في عنق ابنتها وكيف عهدت اليه برعاية شرلوت . وكان ذلك لشرلوت بمثابة روح جديدة الهبت نفسها فاضحت في عنايتها وحنوها على اخوتها اما لهم حقيقية ، فلا تمر بها لحظة واحدة في غير الحدب عليهم والعمل على اسعادهم ، دون ان تفقد شيئا من حيويتها ومرحها . وانا استمع اليه واسير الى قربه بتراخ وخمول ، فاقطف الازهار على الطريق واعنى بجمعها اضمومة ارمي بها الى النهر المتدفق الى قربنا واتبعها بناظري لاراها وهي تغور وتغيب شيئا فشيئا .

لاادري ان كنت قد كتبت لك ان البير سيبقى هنا فسيظفر من البلاط الذي ينظر اليه نظرة تقدير ، بمركز يضمن له موردا حسنا .

والحق اني لم اجد نظيرا لالبير من حيث النظام والمثابرة وحب العمل . انه لافضل واكرم انسان على الارض .

لقد كان بينه وبيني امس مشهد غريب . ذهبت اليه اودعه ، اذ خطر لي ان اقوم بجولة في الجبال ، التي اكتب لك منها الان ، وفيما كنت اروح واجيء في غرفته لمحت غدارتين على الحائط فسألته ان يعيرني اياهما لسفري فأجاب : « بطيبة خاطر على ان تتكفل بامر حشوهما ، فانهما هنا لمجرد الشكل فقط . » فتناولت احدى الغدارتين واستأنف البير حديثه : « لست اود ان يكون لي شأن مع هذه الاسلحة بعد ذلك الفصل السيء » وشاقني معرفة ما جرى . واكمل : « كنت قد قصدت صديقا لي في الريف اقضي عنده ثلاثة اشهر وكان لديّ غدارتان اتركهما فارغتين وانام مطمئنا . وفي عصر يوم مطير جلست فيه عاطلا عن العمل ، لاأدري كيف خطر لي اننا

قد نهاجم فنحتاج الى الغدارتين فاعطيتها الى خادمي لمسحها وتعبئتها فراح يلهو مع الخادم ويحاول اخافتها ولا ادري كيف انطلقت الغدارة فاصابت ابهام يدها اليمنى . وكان عليّ ان اتحمل الصراخ والعويل ثم تكاليف المعالجة . ولهذا فاني اترك غدارتيّ منذ ذلك اليوم غير محشوتين . اترى ايها العزيز ماينفع الحذر ، اننا لانرى الخطر ابدا . ولكن ... »

انت تعلم يا وليم اني احب البير حبا جما . ولكني لااحب استدراكاته الكثيرة ، فمن البديهي ان لكل قاعدة استثناء ، ولكن من عادة هذا الرجل العادل المدقق ، عندما يعرض شيئا مبالغا فيه او مريبا ، ان يحدد ويحوّر ويزيد وينقص حتى لايبقى شيء مما عرضه . وقد استغرق وضاع هذه المرة في سرد قصته حتى لم اعد اسمع كلمة مما يقوله . واستسلمت لعالم احلامي ، ثم تنبهت فجأة وصوبت فوهة الغدارة الى جبهتي فوق العين اليمنى . فصرخ البير : « اف ! » وهو ينتزع السلاح من يدي « ما معنى هذا ؟ » اجبته : « انها غير محشوة » فقال بصبر فارغ : « وان تكن غير محشوة ، لم هذا ؟ اني لا استطيع ان افهم كيف يمكن لرجل عاقل ان يلهب دماغه ، ان الفكرة وحدها ترهبني . »

وصحت به : « انكم معشر الرجال لاتتحدثون عن شيء دون ان تقولوا هذا جنون ، وهذا عقل ، هذا حسن ، وهذا سيء ، هلا تعمقتم درس البواعث الحقيقية لعمل من الاعمال ، هل حللتم الاسباب التي اثارته والتي كان لزاما ان تثيره ، لو فعلتم هذا لما تسرعتم في اصدار الاحكام . »

فاجاب البير : « لعلك توافقني ان بعض الاعمال تكون وتظل محرمة مهما كان الباعث اليها . » فرفعت اكتافي وسلمت له بهذا وقلت : « ولكننا

نجد هنا ايضا بعض الاستثناء للقاعدة . فالسرقة بلا ريب جريمة ولكن الرجل الذي يسمح لنفسه بالسرقة ليرد عنه وعن عائلته غائلة الجوع ، اتراه يستحق القصاص ام الشفقة ؟ من يرجم بالحجارة الاولى زوجا اهين شرفه فقام في ثورته العادلة يقتل امراته ومغويها الدنيء ؟ من يرجم هذه الفتاة التي تستسلم في لحظة من النشوة الى سكرة الحب ؟.»

«ان قوانينا نفسها ، هذه المتحجرة السخيفة تتأثر وتدركها الرحمة فتعلق الحكم وتكف عن الضرب . » وقال البير : « ان هذا شيء آخر فالرجل الذي يتملكه هوى عاصف يفقد مزية الفكر ويجب ان ينظر اليه كشمل او رجل لايعقل . » فصحت باسما : «لكم الله ايها الحكماء المتعقلون !

عاطفة ! سكر ! وجنون !

انكم لفي جمود وهدوء غريب ازاءها ، تحتقرون السكير وتتحولون عن الغر الجاهل ، تولون عنه بوجهكم ، وتشكرون الله كالفريسيين (*) لانه لم يخلقكم على شاكلة هؤلاء !

لقد اخذتني حميا الكاس اكثر من مرة ، وكثيرا ما قاربت عواطفي حد الجنون والخبل ولكني لست بنادم على هذه ولا تلك لاني بت اعرف كيف كان الجمهور ينظر الى الرجال الممتازين الذين أدوا للبشرية خدمات عظيمة كانت تبدو مستحيلة ، كيف كان ينظر اليهم كسكارى ويعتبرهم مجانين . »

(*) جماعة من بني اسرائيل كانوا في زمن المسيح يأخذون انفسهم بالشدة ويخفون تحت مظاهر التقى واحترام الانظمة والقوانين الدينية الرياء والتهتك الخلقي ، وقد كشف المسيح عنهم القناع وشبههم بالمقابر المطلية بالبياض .

« وفي الحياة العادية ، اليس بشيء لايحتمل ان نسمع هذا القول عن رجل قام بعمل خطير ، نبيل او غير منتظر : انه سكران ! مجنون ! »

« يجب ان تستحوا ، وتعلو وجوهكم حمرة الخجل ، انتم العقلاء ، غير السكارى وغير المجانين . »

وقال البير : « تلك هي بعض ترهاتك ، انك تبالغ في كل شيء . وانت تخطيء هنا اذ تخلط بين الانتحار وهو موضوع حديثنا وبين الاعمال العظيمة التي تتطلب عزما وقوة . وهيهات للناس ان يعتبروا الانتحار غير وهن وضعف ، فانه لاسهل ان نموت من ان نتحمل طويلا آلام حياة شقية معذبة . »

وكدت اقطع الحديث واقف عند هذا الحد ، اذ لاشيء يخرجني عن رشدي كسماع رأي عادي مبتذل في موضوع عاطفي يمس القلب ولكني تمالكت نفسي فقد سبق لي كثيرا ان استمعت ساخطا الى مثل هذا الرأي الرخيص ، واجبته بشيء من الحدة : « أتسمون هذا ضعفا ؟ ارجو ان لاتخدع بالظواهر ، اترى هذا الشعب الذي يئن تحت نير مستبد ظالم ، هل تجرؤان تدعوه ضعيفا اذ ينهض ويحطم سلاسله ؟ هذا الرجل الذي يرى النار تلتهم بيته ويشد الخوف عضلاته كلها فيرفع من الاثقال ما يعجز عن زحزحته في الاحوال العادية ، وهذا الرجل الآخر تثيره اهانة لحقت به فيهاجم ستة اقران يخذلهم ، اتدعو كل هذا ضعفا ؟ اواه ! ان كانت الجهود والمساعي العادية تسمى قوة فكيف تكون الجهود العظيمة الفائقة شيئاً اخر ؟ »

فتطلع الي البير وقال : « عفوك ان الامثال التي ذكرتها لاتبدو قابلة

التطبيق هنا . » فاجبته : « قد يكون ، فقد قيل لي كثيرا ما تقارب احكامي الهراء والهزر ، فلزى ان كنا نستطيع ان نتصور بشكل آخر ما يجب ان يجري في خاطر انسان يقرر ان يرمي عن كاهله اثقال الحياة، هذا العبء العزيز على غيره من الناس ، اذ لا يحق ان نحكم في هذا الامن زاوية شعورنا واحساسنا . »

« ان للطبيعة البشرية حدودا ، فهي تستطيع الى حد معين ، ان تتحمل الحزن والفرح والالم ، فاذا جاوزت هذا الحد رزحت تحت اعبائه ، فليس الامر ان نعرف فيما ان كان هذا الرجل ضعيفا او قويا ، بل ان كان بوسعه تحمل اثقال آلامه المعنوية او الجسدية . واعجب لتسميتنا الشقي البائس الذي يحرم نفسه الحيـــاة نذلا جبانا ، ولا نسمي كذلك من تصرعه حمّى خبيثة . »

وصاح البير : « هاك رأيا شاذا » فاجبته : « انه لأصدق مما تظن فانت ترى اننا نطلق صفة العلة القاتلة على تلك التي تهاجم الجسم بدرجة من الشدة تتحطم لها بعض قواه الطبيعية ويضعف بعضها الاخر بشكل لايستطيع معه اي مجهود طارىء ان يعيد الى الجسم مجرى حياته العادية . فلنطبق هذا اذن على حالات الفكر ، لنتأمل الرجل في حالة ضعفه كيف تؤثر فيه الانفعالات و كيف تتركز فيه الافكار حتى لتجرده العواطف النامية فيه باطراد من كل قوة في الارادة وتفضي به الى الانهيار والسقوط . وعبثا يحاول الرجل المتعقل الذي يتأمل حالة هذا الشقي ان يقدم له ببرود النصائح الجميلة ، فليس يستطيع له نفعا اكثر مما يستطيعه الرجل السليم المعافى لرجل مريض ، فليس بوسعه ان يمده باي جزء من قواه . »

ورايتني قد عممت ونأيت بأفكاري عن الواقع فذكرت البير بالصبية التي وجدت غريقة قبل ايام واعدت عليه قصتها .

« كانت فتاة طيبة منصرفة الى اعمالها البيتية ، تشتغل طيلة الاسبوع ولا تعرف من متع العيش الا ان تتزين يوم الاحد ببعض حلي رخيصة اشترتها بشق الانفس وتذهب مع اترابها الى ضواحي المدينة ، او ترقص حيانا في الاعياد الكبرى ، او تقضي بعض المرات ساعة فراغ في التحدث الى رفيقة لها حول قضية شجار او اغتياب جارة لهما . وتتدخل طبيعتها الحادة لتشعرها بحاجات اخرى تنمو مع اطراء الرجال وثنائهم فتصبح ملذاتها الاولى مع الزمن شيئا تافها لاطعم له ، حتى تصادف رجلا تجذبها اليه عاطفة خفية لاتقاوم فتعقد عليه جملة آمالها وتنسى من اجله العالم وما فيه ، فلا ترى ولا تسمع ولا تشتهي الاه وحده . »

« ولأن فتاتنا لم يكن قد افسد طباعها الدلال ومظاهر المتع العابثة فقد سارت بشهواتها رأسا الى الغاية ، فهي تريد ان تكون له فتستقي من ذلك الرباط المقدس السعادة التي تبحث عنها والملذات التي تنشدها . »

« وكان للوعود المتكررة التي طبعت بميسمها جملة امانيها ، والمداعبات الجريئة التي الهبت رغباتها ، ان ملكت عليها نفسها واستولت على سائر كيانها فراحت تسبح في جو لطيف من الشعور بذاتها وتستغرق في تذوق لذائذها المتخيلة حتى وصلت القمة . ومدت ذراعيها لتضم هذه الرغبات جملة فاذا بحبيبها قد هجر . »

« وها هي فتاتنا تقف فاقدة الرشد ، متجمدة على شفا هاوية سحيقة يحيط بها الظلام من كل صوب ، فلا عزاء ولا امل . لقد كانت تجد في

ذلك الفتى وحده سر حياتها فهي لم تعد ترى العالم الفسيح امامها ، ولم تعد تجد في الناس بديلا عن الحبيب الذي هجر . فاعماها اليأس وارهقتها متاعب قلبها فاندفعت الى اللجة تخنق آلامها في موت رحيم يشمل الناس جميعا ويضع لكل شيء نهاية . »

تلك هي قصة الكثيرين من الرجال . فقل يا البير الا ترى فيها سير المرض نفسه وسيرته ذاتها في الاجسام العليلة .

ان الطبيعة في هذه الحالات لاتجد لها مخرجا من اسار القوى المضطربة السائرة في اتجاهات معاكسة ، فيرى الانسان ان يجب ان يموت .

تعسا لمن يجرؤ فيقول : « حمقاء ! لو تريثت وتركت للزمن مجاله ، اذن لسكنت ثورة يأسها ووجدت بعد قليل من يدخل العزاء الى قلبها . » ان هذا لأشبه بقولنا : « هذا الاحمق ، الذي يموت بالحمّى ! لو تريث حتى تثوب اليه قواه ويتطهر دمه ، اذن لعاد كل شيء الى حاله وعاش طويلا بعد . »

اما البير فلم يؤخذ بحجة هذا المثل . وراح يقدم الاعتراضات منها اني سردت قصة فتاة ساذجة محدودة الفكر ، فهو لايستطيع ان يفهم كيف يُعذر رجل عاقل يدرك حقائق الامور والعلائق بينها .

فصحت : « ان الانسان يا صديقي هو الانسان دائما ، وهذا القليل من الفكر والذكاء الذي يملكه احدنا زيادة عن اخيه ، ليس له كبير شان في الميزان عندما تصطخب العواطف وتغلي ونحس بالحدود الضيقة المرسومة امام الكائن البشري . واكثر من هذا ... ولكن لندع حديثه الى يوم آخر . » قلت هذا وانا اتناول قبعتي .

اواه ، ان قلبي اليوم لمفعم زاخر .

وافترقنا على اختلاف ، وقلما يتفاهم الناس ويتفقون على رأي في هذا العالم .

١٥ آب

ليس من شيء يشعر الناس بحاجتهم الينا كشعورنا بالعطف والحدب عليهم .

اني لأشعر ان شرلوت تحزن لفقدي . ولا يشغل الصغار الا فكرة رؤيتي عائدا اليهم دائما في اليوم الذي يلي .

ذهبت الى شرلوت اليوم اصلح لها البيان فلم اجد الى ذلك سبيلا . فقد ارهقني هؤلاء الحبثاء في طلب قصة احكيها لهم . وقررت شرلوت نفسها انه يجب ان احقق رغبتهم . وبعد ان وزعت عليهم خبز العصر (باتوا يقبلونه مني بطيبة خاطر ، كما لو كانت شرلوت) قصصت عليهم حكاية الاميرة العجيبة التي يقوم على خدمتها السحرة .

اؤكد لك ايها الصديق اني افيد كثيرا من رواية هذه القصص واعجب لسلطانها وتأثيرها الغريب في نفوسهم ، واذا بدا لي مرة ان ازيد واختلق حادثا جديدا في القصة ، ثم انساه عندما ارويها لهم ثانية ، صرخوا فيّ : « لم تكن هكذا في المرة الاولى » حتى بت اتمرن على حكاية القصص كالمسبحة : ذات تموجات الصوت وذات النغم ، دون اي تغيير . وقد رايت في هذا ان الكاتب الذي يدخل بعض التحوير في طبعة ثانية لمؤلف من نسج الخيال ، انما يسيء الى هذا المؤلف ولو كان التحوير قد حسنه بالفعل ، فالطبعة الاولى تلقى منا الاستسلام والرضى . وقد طبع الناس على

تصديق اكثر الاشياء غرابة ، فاذا رسخت في اذهانهم وتوطنت في نفوسهم فالويل لمن يحاول ازالتها .

١٨ آب

لمَ تصبح الاشياء نفسها التي كانت مصدر سعادتنا علة شقائنا وبؤسنا ؟ هذه الحساسية المرهفة التي يتقد بها قلبي حبا للطبيعة والحياة ، والتي كانت تغمرني باللذائذ والمتع وتجعل العالم جنة حولي ، لقد اضحت اليوم جلادي المخيف والروح الشريرة التي تلاحقني في كل مكان .

فحينما كنت اتامل في الماضي ، من قمة الصخرة ، ذلك الوادي الخصيب الممتد من وراء النهر الى سفوح هذه السلسلة من الهضاب النضيرة ،

وارى كل شيء من حولي ينبت وينبثق ،

عندما كنت انطلع الى هذه الجبال المكسوة بالاشجار الكثيفة المتشابكة من جذعها حتى التاج ،

وهذه الوديان العميقة تظلل ثناياها الآجام الضاحكة ،

والى النهر الهادي كيف يجري بين الاقصاب المرتعشة ، ويعكس صورة الغيمة الخفيفة ، يتلاعب بها في الفضاء نسيم المساء وانا استمع الى الطيور الصغيرة تهز الغابة من حولي شدوا ومرحا ،

وارى آلاف افراخ الذباب ترقص فرحة على آخر شعاع ارجواني من نور الشمس التي تبعث بنظراتها الاخيرة المحتضرة ، لتنقذ الجعل المغضي وتخرجه من سجنه ، بين الاعشاب ،

وتردني وشوشة الحياة الصاخبة الى تأمل صخرتي ، فأتطلع الى الحشائش الدقيقة كيف تلتصق بالحجارة الصلدة وتمتص منها غذاءها ، والى الرتم ينمو على الهضاب المرملة القاحلة ، فأعجب لهذه الحياة الداخلية الخفية ، العاملة دائما والكلية القدرة ، كيف تبعث الحياة في صدر الطبيعة .

لشد ما كان يضطرم كل هذا في قلبي .

حتى لأشعر بهذا السيل الدافق الذي يجتازني وكأنه قد سما بي الى الشعور بالوهيتي ، واحس بالصور والاشكال الجميلة المهيبة لهذا العالم الازلي تموج وتصطخب في نفسي ، وانا محاط بالجبال الضخمة والوهاد العميقة تقتحمها انهار من العواصف ، والسواقي الكبيرة تجري تحت قدمي ، فأرى خلال مائها الدافق ، في اعماق الارض ، القوى الخفية المبدعة ، تتفاعل في مابينها فتفيض وتنتشر تحت السماء وفي جوف الارض انواعا لاتحصى من الكائنات الحية .

كل ما في الكون حي آهل على مختلف اشكاله وصوره ، والناس يلوذون بمساكنهم الصغيرة ويوهم بعضهم بعضا انهم سائدون يهيمنون بالفكر على الكون الفسيح .

ايها الاحمق ، انك لترى كل شيء تافها حقيرا ، لانك تافه حقير .

من الجبال الصحراوية المنيعة التي لم تطأها قدم انسان الى شاطىء الاوقيانوس المجهول ، تتهادى روح المبدع الازلي فتنتعش كل ذرة تتنسمها .

آه ! كم تمنيت ان اطير محمولا على اجنحة الكركي الذي يمر فوق رأسي ، الى شاطىء البحر العظيم ، اشرب اكسير الحياة في كأس الازل المزبدة ، وارتشف في نطاق صدري الضيّق ، للحظة واحدة ، قطرة من غبطة

الكائن المبدع الذي يخلق كل شيء في ذاته وبذاته :

لم يعد لي ايها الصديق سوى ذكرى هذه الساعات ، لتبعث العزاء الى قلبي ، حتى الجهود التي اصرفها لاحياء هذه العواطف الغامضة والتعبير عنها ، لترتفع بنفسي عن ذاتها وتردني الى الشعور بآلام وضعي الحالي :

حجاب كثيف قد انكشف امامي وتحول مشهد الحياة الازلية الى قبر مفتوح فاغر اليّ فاه ابدا .

هل نستطيع ان نقول : « هذا كائن » بينما نرى كل شيء يمر ويتلاشى في سرعة البرق ، ولا نجد مخلوقا يعيش كل الحياة الكامنة فيه ، فلا يدفعه السيل ويحطمه على الصخور ؟

ان لحظة واحدة لا تمر بنا دون ان تفني وتخرب شيئا لنا ولذوينا . ولا تمر لحظة لا نكون فيها نحن انفسنا مدمرين مخربين . فان اية نزهة بريئة نقوم بها تكلف حياة آلاف من الحشرات والهوام . وخطوة واحدة من خطانا تخرب جهود النمل الشاقة وترسل بعالم صغير الى لجة القبر .

اواه ! ليس ما يمضني هذه الكوارث والنكبات البشرية التي تلتهم مدنكم ، ان ما يحزنني هذه القوى المفترسة الكامنة في الطبيعة والتي لاتخلق شيئا لا يحطم ويدمر مَن حوله ثم يدمر نفسه .

هكذا اسير تائها مفعما شجنا فلا ارى في السماء والارض والقوى العاملة التي تحيط بي الا وحشا ضاريا دائم الافتراس والنهم .

٢١ آب

عبثا ابسط لها ذراعيّ في الصباح ، وانا استيقظ من حلم كئيب .

عبثا اتحرى عنها الى جانبي في الليل ، وقد خدعني حلم بريء سعيد فخلتني الى قربها على المرج اغمر يدها بقبلاتي . وعندما ابحث عنها ، وانا اثوب شيئا فشيئا الى اليقظة من سكرة الكرى ، ينهمل من قلبي سيل من الدمع وابكي يائسا من المستقبل القاتم الذي ينتظرني .

٢٢ آب

لشد ما انا حري بالرثاء يا وليم .

لقد فقدت زمام نفسي وهويت الى يأس لم يعفني من الاضطراب والقلق. ليس بوسعي ان اظل بلا عمل ، ولكني لا استطيع ان اعمل شيئا. لم يعد لي خيال ولا حساسية تصلني بالطبيعة ، والكتب باتت تثير اشمئزازي .

حقا اننا نخسر كل شيء في العالم اذا خسرنا انفسنا .

اقسم لك يا وليم ، لقد تمنيت مئة مرة ان اكون عاملا بسيطا يجد له في الصباح عملا معينا يتوجه اليه بأمله . وكثيرا ما اغبط البير عندما اراه غارقا الى اذنيه في اعماله الرسمية. ويخيل لي لو اني محله ، اذن لكنت سعيدا.

بدا لي اكثر من مرة ان اكتب لك واكتب الى الوزير اسأله العمل في السفارة . واني ارى معك انهم لن يرفضوا لي طلبا . ان الوزير يحضني وده منذ زمن طويل وقد نصحني كثيرا ان اشغل نفسي بعمل . واني لأجد نفسي على استعداد احيانا لمثل هذا العمل . ولكني عندما امعن النظر وتخطر لي قصة الحصان الذي اتعبته حريته فرضي السرج واللجام وراح يتحمل الضرب والتعب ، تأخذني الحيرة ولا ادري ما اصنع .

آه يا صديقي . الا تأتنا هذه الرغبة في تغيير اوضاعنا من قلق داخلي سيلاحقني انّى حللت ؟

٢٨ آب

حقا . لو كان يرجى لعلتي دواء لمنحني اصدقائي الشفاء .

كان اليوم ذكرى مولدي فتلقيت منذ انبثاق الصباح صرة صغيرة من قبل البير ، وأول ما لفت نظري عندما فتحتها عقد وردية من الشريط الذي كان يزيّن صدر شرلوت عندما لقيتها اول مرة ، وكنت قد طلبته منها مرارا ، ومجلد صغير الحجم من هوميروس لِ : (وتستين) وهي طبعة رغبت في اقتنائها مرارا حتى لا ارهق بحمل طبعة (ارنستي) في نزهاتي .

اترى كيف يستشفون رغائبي بمثل هذه اللطائف التي تنم عن ود اكيد وتفوق الف مرة تلك الهدايا الفخمة التي يمس غرور صاحبها من عزتنا .

قبلت العقد الف مرة وانا استثير واتذوق في كل منها ذكرى المباهج التي غمرتني بها تلك الايام القليلة وقد ولت مسرعة لا تعوض .

وانها لحقيقة واقعة اسلم بها راضيا : « ان ازهار الحياة خيالات وروءى زائلة سرعان ما تذبل وتفنى فلا تترك لها اثرا . قليل منها ما يعطي ثمرا ، وقليل من هذا الثمر ما يبلغ نضجه . »

ومع هذا فالموجود منها كفاية ، حتى ..

آه يا صديقي . كيف نستطيع رؤية الثمار اليانعة فلا نمد لها يدا ؟ انتصرف عنها ونتركها تبلى ؟ وداعا . ان الصيف جميل بهي ، وانا كثيرا

ما اصعد الاشجار في بستان شرلوت فأرمي بعصا طويلة، الاجاصات المرتفعة لشرلوت، من تحت ، تتلقفها توا .

٣٠ آب

الستَ مخبولا يخدع نفسه ايها الشقي !

ماذا تأمل من هذا الحب الجنوني الذي لا يعرف له حدا ؟

لم اعد اتوجه بصلاتي الا لها ، ولا يسعفني خيالي بغير صورتها وشكلها . ولست ارى من كل ما يحيط بي الا ما يتعلق بها او يمسها . وهكذا اهيىء لي بعض الاوقات السعيدة حتى اجد ما يضطرني الى انتزاع نفسي من عالمها .

اواه ! الى اين يشط بي قلبي احيانا عندما يصدف ان اقضي الى قربها ساعتين او ثلاثة اتملى من قسمات وجهها ، وقدها الوسيم ، ونغم صوتها السماوي . ان حواسي تتقيد رويدا رويدا حتى لا اكاد اعي شيئا ، ويأخذ بي خناق يشد على عنقي كيد قاتل ، ويسعى قلبي بخفقات شديدة ان يخفف من ارتباك حواسي فلا يعدو ان يزيد في اضطرابها ، ولا ادري عندها ان كنت ما ازال حيا بعد ، وان كان الالم لن يستحوذ علي ، وفيما اذا كانت شرلوت ستمنحني هذا العزاء البائس ، فتدعني ابكي على يدها واسرّي عن قلبي .

ولا ارى لي في مثل هذه الحال الا ان ابتعد واهيم في الحقول واتسلق بعض الجبال المنيعة او اقتحم لي طريقا في الغابات الكثيفة المضلّة ، بين الآجام التي تدمي جسدي والاشواك الذي تمزقه . تلك مباهجي وافراحي! واني لأجد لنفسي حينذاك بعض الراحة . وعندما يرهقني العطش والتعب

فأجبر على وقف تجوالي ، واجلس في جوف الليل ، على ضوء القمر ، فوق جذع شجرة عقداء ، في غابة منعزلة ، لاخفف قليلا من تعب رجلي الممزقتين ، استسلم للرقاد في الغسق وانام نوما مضطربا .

اواه يا وليم . اني لاجد حزام الشوك والحياة في حجرة مظلمة عزاء تصبو اليه نفسي .

وداعا . اني لا ارى في غير القبر نهاية لكل هذا العذاب .

٣ ايلول

اجل ، يجب ان ارحل . واني اشكرك يا وليم فقد ثبّتّ عزمي ، فأنا منذ اسبوعين ادرس فكرة مغادرتها . يجب ان ارحل حتما . لقد ذهبت شرلوت مرة ثانية الى المدينة تزور احدى صديقاتها . والبير .. و .. يجب ان ارحل .

١٠ ايلول

يا لها من ليلة يا وليم ! اني استطيع الآن ان اتحمل كل شيء ، فلن اراها ابدا .

ليتني استطيع ان اطير اليك وارتمي على عنقك ، لاعبر لك بثورة انفعالي وسيل مدامعي ، عما يزلزل قلبي من عواطف .

ها انا برم اتململ قلقا ، اشعر بضيق في صدري واجهد عبثا لتهدئة اعصابي . اني انتظر الصباح اذ تصلني الخيول لدى مشرق الشمس .

اواه ! انها تنام نومها الهادىء ولا يخطر لها انها لن تراني ابدا . لقد

فارقتها على مضض بعد ساعتين من الحديث ، وملكت نفسي فلم انبئها بما نويت . واي حديث يا إلهي !

كان البير قد وعدني ان يأتي الى الحديقة مع شرلوت بعد العشاء توا وكنت في الشرفة ، تحت اشجار البلوط الباسقة ، اتطلع الى الشمس وهي تغيب لآخر مرة امامي وراء واديّ الضاحك وينعكس شعاعها على صفحة النهر الهادىء .

كم مرة وقفنا هنا نتأمل معا هذا المشهد الجميل . واليوم.. كنت اسير جيئة وذهابا في هذا الممر الحبيب ، وقد كان يدفعني اليه جاذب خفي، حتى قبل معرفتي لشرلوت . ولشد ما كان فرحنا عظيما يوم تكاشفنا حبنا المشترك لهذه البقعة المسحورة .

حقا انها لابدع واروع ما يمكن ان يتصوره خيال فنان ، تطالعك منها لاول وهلة ، فسحة كبيرة تمتد بين اشجار الكستنا . ولكني اذكر، على ما اظن ، اني كتبت لك من قبل عن هذا الممر الذي يجد فيه المرء نفسه سجينا بين صفّين من شجر الزان ، وعن الممشى الذي يظل شيئا فشيئا كلما اقترب من اشجار الغابة التي يجتازها الى بقعة مسوّرة يؤخذ فيها المشاهد بشعور خاشع من الوحدة . واني لاحس الآن بما استحوذ علي من دهشة وروعة عندما دخلت هذا المكان اول مرة ، والشمس مستوية في كبد السماء ، فقد خامرني احساس غامض من الغبطة والالم .

وكنت مستغرقا في الخواطر الحلوة المريرة للّحظات التي نفترق فيها ولتلك التي تشهد لقاءنا بعد ذاك ، عندما سمعت وقع اقدامهما على الشرفة ، فاسرعت اليهما وتناولت يد شرلوت وقبلتها بخشوع . وكان القمر قد اطل

من وراء الادغال ونحن نتحدث وندنو دون ان نشعر، من الاجمة المظلمة ، فولجتها شرلوت وجلس البير الى قربها وجلست انا الى جانبها الآخر . ولكن اضطرابي لم يسمح لي بالبقاء في مكاني فنهضت ووقفت امامها ثم مشيت بضع خطوات وجلست ثانية ، فقد كنت في حالة عنيفة . ولفتت شرلوت انظارنا الى القمر كيف تغمر اضواؤه الشرفة كلها ، وكان منظرا فاتنا تزيد في روعته الظلمة العميقة التي تخيم علينا .

ولبثنا برهة في صمت قطعته شرلوت : « ما سرت في ضوء القمر مرة الا ذكرت من قضى من اهلي وفكرت في الموت والبعث . » ثم قالت بصوت ينم عن بالغ تأثرها : « لسوف نحيا من جديد ، ولكن هل نلتقي ونتعارف يا ڤرتر . ماذا ترى ؟ »

— وماذا ترين انت يا شرلوت ؟

قلت هذا وانا ابسط اليها يديّ واحس الدموع تنهمر من عينيّ .

— سنلتقي يا شرلوت هنا وفي الحياة الاخرى ، ولم استطع ان ازيد . أكان يجب ان تلقي علي هذا السؤال يا وليم ، في اللحظة التي كان يجيش بها صدري بلوعة هذا الفراق الاليم ؟

واكملت شرلوت : « وهل يعرف عنا شيئا من فقدنا من احبة ؟ هل يشعرون بما يخالجنا عندما نستثير ذكرهم ؟ ان صورة امي لتتراءى لعيني دوما ، كلما جلست هادئة في المساء وسط اطفالها واطفالي، وازدحموا حولي كما كانوا يزدحمون حولها ، فأرفع الى السماء عيني المبللتين بالدموع واود لو تستطيع امي ان تنظر الينا من عليائها لترى كيف افي بما عاهدتها في ساعتها الاخيرة من ان اكون لاطفالها ، اما رءوما ، اني لاهتف

مرارا : « غفرانك يا اماه ان لم استطع ان اكون لهم كما كنت انت ، لهفاه ! اني ابذل كل ما بوسعي من اجل غذائهم و كسائهم ، وهم على هذا مدللون محبوبون . لمَ لا ترين انحادنا ايتها الام القديسة ، حتى تحمدين الله لاستجابته دعاءك عندما تضرعت اليه شاكية ان يسعد اطفالك . »

لقد قالت هذا يا وليم ، ولكن من يستطيع ان يعيد ما قالته . كيف تستطيع هذه الحروف الباردة ان تؤدي ذلك الغليان من الحنان والعبقرية

وقاطعها البير بلطف : «هذا يهيج اشجانك ياشرلوت ، اني اعرف قيمة هذه الذكريات ومنزلتها عندك ولكني اتوسل اليك.. »

وقاطعته شرلوت : « البير . انك لم تنس تلك الليالي التي كنا نجلس فيها حول المائدة الصغيرة المستديرة وابي غائب في سفر والاطفال نيام ، و كنت تحمل معك في الغالب كتابا مفيدا ولكنك لم تكن تقرأ لنا شيئا منه الا نادرا . الم يكن حديث تلك الام الوديعة والمرأة الحلوة المرحة النشيطة دائما ، مفضلا لدينا على كل شيء سواه ، يعلم الله ما اسكب من دمع حين آوي الى سريري متضرعة اليه ان يجعلني مثيلة لها . »

وهتفت : « شرلوت ! » وانا ارمي على قدميها وابلل يدها بدموعي ، « شرلوت ، لتحل عليك بركة السماء وروح امك . »

وقالت شرلوت وهي تضغط على يدي : « لو عرفتها ياڤرتر ! فقد كانت جديرة ان تعرفها . »

وخلتني اذوب وافنى ، اذ لم يسبق لي ان سمعت أجمل منها كلمة تقال في مدحي .

— « ان هذه المرأة قد اخترمها الموت وهي في زهرة العمر ، ولم يكن

لاصغر اطفالها سوى ستة اشهر . لم تطل بها العلة ، وكانت هادئة مستسلمة لا يمضها سوى التفكير بأولادها ولا سيما الصغير ، وقد قالت لي عندما احست بدنو اجلها : « ائتني بالاولاد » فسرت بهم اليها ، ولم يكن الصغار ليدركون بعد معنى الخسارة التي تحل بهم ، ووقف الكبار واجمين . وانا اتخيلهم الآن حول سريرها وقد بسطت عليهم يدها تباركهم وتصلي من اجلهم . ثم عانقتهم واحدا واحدا واومأت اليهم فغادروا الغرفة وقالت لي : « كوني لهم اما يا شرلوت » فتمتمت مقسمة على ذلك وقالت امي : « ان ما تعدينني به عظيم جليل يا ابنتي . اتدرين ما قلب الام ، وعين الام ؟ ولكن ما تسكبين من دموع المحبة والوفاء يطمئن قلبي ، فهبي اخوتك يا شرلوت القلب الرءوم والعين المحبة الساهرة ، وامنحي اباك طاعة الزوجة الوفية فستكونين له عزاءً وسلوى . »

وطلبت رؤيته وكان المسكين قد خرج ليخفي عنا الآلام المرهقة التي تزلزل صدره ، وكنتَ يا البير في الغرفة فسمعت وقع خطاك وعرفتك فقربتك منها وتألقت عيناها نحونا بنظرات معبرة آملة ان نحيا سعيدين معا . »

وطفت على البير الهادىء الرزين عواطف جياشة فضم شرلوت بين ذراعيه وقبلها وهو يقول : « اننا سعيدان وسنظل كذلك الى الابد . »

اما انا فخلتني افقد رشدي . واكملت شرلوت : « ثرتر ! ان هذه المرأة قد زالت من الوجود . الهي ! كم يعز علينا ان نفقد احب الناس الينا . وكان الاطفال اكثرنا تأثرا والما ، وظلوا طويلا يشكون من الاشباح السوداء الذين اختطفوا ماما . »

ونهضت شرلوت وكنت قد فقدت الوعي بذاتي فبقيت جالسا وانا

امسك بيدها ، وقالت : « لقد آن لنا ان نعود . » وارادت ان تسحب يدها فظلمت قابضا عليها بشدة وقلت : « سنلتقي يا شرلوت على اي شكل ونتعارف . اني افارقكم ، وانا افعل هذا بمحض اختياري ولكني انكث بالعهد ان وعدت ان يكون هـذا الفراق فراقا ابديا . وداعا يا شرلوت ، وداعا يا البير ، وسنلتقي .

وقالت شرلوت باسمة : « غداً على ما اظن ... » اما انا فقد شعرت بلوعة هذا الغد .

اواه ! لم تكن تدري وهي تسحب يدها من يدي ...

وهبطا الممر . ورأيتهما يبتعدان في ضوء القمر ورميت بنفسي الى الارض وانا اجهش بالبكاء . ثم نهضت وعدوت على الشرفة فرأيت على باب الحديقة ، ثوبها الابيض يلمع في ظلال الزيزفون فبسطت ذراعيّ ، واختفى كل شيء .

كرستا ليوت - بيكر .

الجزء الثاني

٢٠ تشرين الاول ١٧٧١

وصلنا امس ، وقد اعتلت صحة السفير فهو لن يخرج قبل ايام .

لو كان فقط على شيء من دماثة الخلق ، لهان الامر وسار على ما احب . ان الغد قد هيأ لي ، كما ارى ، اختبارا قاسيا . ولكن لنتجلد فبوسع الروح الرضية المرحة ان تتحمل كل شيء .

الروح المرحة ! يضحكني ان تسيل هذه الكلمة على يراعي . لهفاه ! ان بعض هذا المرح يجعلني اسعد انسان على وجه الارض . كيف ؟ أيتاح لغيري بهذا القدر اليسير من القوة والمعرفة ان يمسوا تيها بكفاياتهم الصغيرة وارتد يائسا من قواي ومواهبي !

ربي ! ايها الاله القدير الذي وهبني كل هذه المنح ، لمَ لم تحتجز بعضها لتعيضني عنها بشعور الاكتفاء والثقة بالنفس ؟

الا صبرا ، صبرا . فلا بد ان تسير الامور على ما نشتهي ، والحق انك مصيب يا صديقي . واني لاشعر بالرضى عن نفسي مذ بدأت معاشرة الناس وعرفت سلوكهم وما تنطوي عليه نفوسهم . وهذا طبيعي فما دمنا مفطورين على مقارنة انفسنا بالناس من حولنا فسعادتنا وشقاؤنا يتعلقان بمن يحيط بنا . ولذلك كانت العزلة اشد الاخطار التي تهددنا ، فمخيلتنا التي

يذكي اوارها الشعر وتنزع بطبيعتها الى التسامي تخلق لنا احياء ممتازين يسحقنا تفوقهم . فاذا تحولنا بانظارنا الى عالم الواقع خيل الينا ان كل ما عدانا من الناس افضل واكمل منا . وهذا جد طبيعي فنحن في الغالب نشعر باشياء كثيرة تنقصنا ويبدو لنا ان شخصا آخر غيرنا يملك ما ينقصنا ، فنحن بذلك نسبغ عليه مالنا من فضائل ونزيد عليها بعض الصفات المثالية . وهكذا ننشيء بأنفسنا آيات للكمال والسعادة البشرية تغدو مصدر عذابنا . ونحن على النقيض ان سرنا الى غايتنا بشجاعة وعزم وعرفنا بواعث ضعفنا وبؤسنا ، راينا ، وان سرنا الهوينا ، اننا نسبق الكثيرين من السائرين بقوة الاشرعة والمجاذيف .

وهل اجدى لشعورنا بذاتنا من ان نجاري الانداد او نسبقهم في مضمار الحياة ؟

٢٦ تشرين الثاني

بدأت استلذ الحياة من بعض الوجوه ، واهمها ان العمل موفور هنا ، وهذا العدد الكبير من الاشخاص والوجوه الكثيرة تتيح لي مشاهد طريفة مسلية .

تعرفت الى الكونت (س) وانا ازداد له مع الايام احتراما وودا . انه رجل واسع المعرفة ولم تكن مشاغله الكثيرة لتبلد شعوره بالصداقة والمحبة . وقد اهتم بي لمناسبة قضية له اتاحت لي فرصة التحدث اليه ، فلاحظ لاول كلمات تبادلناها اننا نستطيع التفاهم وانه يتحدث اليّ كما لا يمكنه ان يفعل مع سواي . وليس بوسعي ان افي نفسي حقها من الفخر

والثناء لما يبديه في معـاملته لي من الاخلاص والصراحة . حقا ليس من فرح اقوى ولا اروع من ان تجد قلبا كبيرا يتفتح لك وينكشف امامك .

٢٤ كانون الاول

بدأ السفير يغمني ، وهـذا ما توقعته . انه رجل احمق سخيف يعييك اذ يسير خطوة خطوة ، يدقق ويماحك كامرأة عجوز . انه غير راض عن نفسه فليس بالتـالي من يستطيع ارضاءه . وانا اعمل واكتب منطلقا على سجيتي ويسوءني بعدذاك التحوير والتبديل . الا انه يقول لي على سبيـل التذكير : « حسن ، ولكن اعد فيه النظر ، فلا يعدم الباحث كلمة اوفى وتعبيرا اصح . » واني لاود حينذاك ان اذهب الى الشيطان مختارا . فليس من اداة عطف او حركة يمكن اهمالهـا . وهو عدو لكل تبديل او تحوير في مبنى الجملة ، مما يصدر عني احيـانا . واذا لم يأت النص وفق اسـلوب الدواوين القديم فهو لا يفقه له معنى .

اي شقاء واذى للقلب ان يكون لي شأن مع هذا الرجل ! الا ان الثقة التي يوليني اياها الكونت (س) تعزيني عن هذا بعض الشيء . وقد صارحني قبـل ايام عن مبلغ سخطه على مماحكة السفير وتردده وبطئه . وقال لي : « ان امثال هؤلاء لا يحتملهم الناس ولا يحتملون انفسهم ، ومع هذا يجب ان نتجاوزهم ونغر بهم مرا كريما ، كالمسافر يعترضه جبل ، فلا ريب ان الطريق ايسر واقصر بدون هذا الجبل ، الا انه قائم امامنا ولا بد لنا من اجتيازه . »

وقد ادرك عجوزنا ان الكونت يؤثرني بوده فزاد تحمضه وهو يتحين

الفرص ليذكره بسوء امامي ، ولكني الزم الصمت فيزداد الموقف سوءا .

لقد اثار غضبي امس اذ تقصد في معرض الحديث عن الكونت النيل مني ايضا . قال لي ان الكونت رجل عملي خبير وهو سريع الخاطر ويجيد الكتابة ، ولا ينقصه الا التضلع والتعمق في البحث شأن هؤلاء المتأدبين . وارفق الكلمة باشارة مفادها : « هل تحس بالوخزة ؟ » وشعرت بكره نحو هـذا الرجل الذي يفكر ويعمل على هـذا النمط وجابهته بشدة ، قلت : « ان الكونت يستحق كل اعتبار ، ليس من اجل متانة خلقه فحسب بل لمعارفه الواسعة ، وانا لا اعرف رجلا وفق مثله الى توسيع نطاق فكره وتطبيق معلوماته على عدد متناه من الاشياء ، دون ان يفقد شيئا من بواعث نشاطه للحياة العملية . » وكان هذا الكلام بمثابة اللغة العبرية على آذان الكونت وذهنه المغلق . وقد انحنيت له مودعا وانصرفت على عجل كي لا اتخم بتعليلاته الطويلة .

واني اتوجه اليكم بلومي ، انتم الذي اردتم لي هـذا النير وحببتم الي صرف الجهد ، الجهد ! اني لارضى مختارا بحمل قيودي والتجذيف عشر سنين على هذه السفينة (*) ان كان جهدي اكثر فائدة وقيمة من عمل هذا الفلاح الذي يزرع البطاطس ويذهب لبيع قمحه في اسواق المدينة .

واي ملل وبؤس براق يسود حياة هذا الشعب الباهت هنا ! ثم جنونه بالمراتب ! هذا الذي يدفع بالناس ان يترصد ويراقب بعضهم بعضا في سبيل

(*) كناية يراد بها الاشغال الشاقة ، وكانت بعض الحكومات تفرض قديما على المساجين العمل في التجذيف على سفنها .

حظوة ، او ليتقدم دونهم خطوة ! اية مجموعة من الشهوات والاهواء الصغيرة الظاهرة لا يكاد يسترها حياء او حجاب !

واسرد لك على سبيل المثال سيرة سيدة لقيتها وهي لا تفتأ تحدث الناس عن كرم محتدها واتساع ملكها حتى لا يسع من يستمع اليها لاول مرة ان يقول : « ها كم مخلوقة طاش بحلمها كرم النجاد وبعض الفدادين من الارض . » ولكن في هذا الحكم كثيرا من السماحة فسيدتنا لا تعدو ان تكون ابنة كاتب محكمة في الجوار .

اترى ايها العزيز وليم الى هذا الجنس البشري كيف تسف به الغفلة والذوق الهجين الى مثل هذا الدرك ؟ ولكني ازداد مع الايام يقينا ان ليس من الحكمة والعدل ان نحكم على الناس من زاويتنا الخاصة ، ولي من عواطفي وشجوني كفاية ، انا الذي تعصف بقلبه كل هذه الزوابع . اواه ، اني لادع للناس راضيا ، ان يسير كل في سبيله ، على ان يتركوا لي حرية السير في سبيلي .

على ان اشد ما يؤلمني ويثيرني هذا التمايز التعيس بين طبقات الشعب . واني لاعلم ما يعلمه سواي من ضرورة الخلف والتمايز بين الناس وما افيد منه ، انا خاصة ، من منافع ، ولكني لا اريد ان يقف عقبة في طريقنا الى بعض الملذات ويحول دون استمتاعنا بشيء من اوهام السعادة في هذه الحياة .

تعرفت منذ قليل في بعض نزهاتي ، الى الآنسة (ب) وهي صبية تحتفظ بكثير من سلامة الطبع رغم مظاهر التكلف والتصنع في المجتمع الذي تعيش فيه . وقد سرنا تعارفنا فلما افترقنا التمست منها ان تأذن لي بزيارتها

فسمحت لي بكثير من علائم الود والولاء ، حتى افتقدت الصبر على انتظار الساعة الملائمة للقيام بهذه بالزيارة .

والآنسة غريبة عن المدينة تقيم لدى عمة لها لم يرق لي مظهرها ، رغم اني توجهت اليها باهتمامي واحترامي وخصصتها باكثر حديثي . ولقد كشفت من امر العمة في اقل من نصف ساعة ما علمته من حفيدتها بعد ذاك ، من ان العمة العزيزة محرومة من كل المزايا فهي لاتملك من مواهب الفكر والمادة ومن الموارد غير اسم عائلتها ، وليس لها من ملاذ غير الطبقة التي تحتمي بها ، ولا ثمة لذة غير التطلع بخيلاء وزهو من شرفة دارها الى عامة الناس .

وبدالي انها كانت جميلة في مطلع حياتها ، وقضت عهد شبابها باللهو السخيف العابث تتجنى على الفتيان وتعذب قلوبهم بدلالها وطيشها . ولماذوت زهرة الصبا الاول اسلمت كبرياءها لنير ضابط عجوز كوفيء على زواجه منها بوظيفة صغيرة وعاش معها عهد الكهولة ثم قضى فتركها وحيدة منبوذة لايتطلع اليها احد لولا رقة حفيدتها ودماثة خلقها .

٨ كانون الثاني ١٧٧٢

ما اعجب الا هؤلاء الذين يصرفون همهم في تتبع الاصول والمراسيم ويقضون السنة في تخيّر الوسائل التي تتقدم بهم من كرسي متأخر على المائدة الى آخر اكثر وجاهة وظهورا . ولا تحسبهم ، على هذا ، بلاشاغل اوعمل ، انما تصرفهم هذه الجهود السخيفة عن انجاز امور خطيرة تترتب عليهم . وهذا

ما حدث في الاسبوع الفائت في سباق الزّحافات على الجليد فكان ان اضطربت الحفلة واختل نظامها .

مجازين ! لايدركون ان المنصب ليس بكبير شأن ، وان الذين يشغلون المرتبة الاولى يندر ان يلعبوا الدور الاول . فكم ملوك يقودهم وزراؤهم وكم وزراء يسيرهم امناء سرهم . ولكن ، من هم الاولون اذن ؟

انهم لاولئك المميزين بالفكر والمعرفة والذين يمتلكون من الحذق وقوة الخلق ما يسخّرون به قوى الآخرين لتحقيق مآربهم واغراضهم .

٢٠ كانون الثاني

ارى لزاما علي يا شرلوت ان اكتب لك من هنا وانا ، في غرفة صغيرة من فندق ريفي لجأت اليه لاتقي شر العاصفة . وانا مذ بدات حياتي الباهتة في مدينة (د) البائسة ، بين قوم غرباء ، جد غرباء على قلبي ، لم اجد لهذا القلب لحظة واحدة ينعم فيها بالكتابة اليك .

ولكني لم اكد الج هذا الكوخ المنعزل ، واحس بقطع الجليد والثلج تعصف على نافذتي الصغيرة حتى شغلتِ حنايا قلبي وجملة فكري .

اجل يا شرلوت ، لم اطيء هذا المكان حتى تمثل لي خيالك المنعش المحيي وعاودتني ذكراك الحية المقدسة .

الهي ! لكأنها لذائذ اللقاء الاول ترف اجنحتها اللطيفة في قلبي . لو رأيتي يا شرلوت كيف اذوي وانا في غمرة سيل من الملذات والمتع . لم تبق لقلبي لحظة واحدة ينعم فيها بفيضه الدافق ، والدموع اللطيفة الناعمة لم تعد

تزور عينيّ ، لاشيء ، لاشيء ، و كأني هنا امام صندوق العجائب ، ارى رجالا صغارا وخيولا صغارا تروح وتجيء امام عيني فاسائل نفسي ان لم يكن ماراه اوهام روىء خادعة . على اني في عداد الممثلين ايضاً ، العب دوري او بالاحرى هناك من يلعب بي فاتحرك بارادته . و كثير اما امسك جاري من يده الخشبية فارتد مرتعشا مذعورا .

كثيرا ما اعد نفسي في المساء بيقظة مبكرة استمتع فيها بمطلع الشمس الاني الازم سريري في الصباح . وامني النفس في النهار بمشاهدة ضياء القمر ، ولكني الازم غرفتي . يقينا لست ادري لمَ استيقظ ولمَ انام . اني لأفتقد تلك الحميرة التي كانت تجعل لحياتي طعما فلا اجدها . لقد زال ذلك السحر الذي كان يتركني مستيقظا في جوف الليل وينتزعني من احضان الكرى في غرة الصبح .

لم اجد في هذا البلد سوى كائن واحد يستحق ان يدعى امرأة ، هي الانسة (ب) . انها تشبهك يا شرلوت ، ان كان بوسع انسان ان يشبهك .

هـه ، تقولين : «انه ما يزال يعنى بالمجاملات!» وهذا صحيح بعض الشيء فلقد اصبحت منذ زمن ، ظريفا مؤنسا ، وليس بوسعي ان اكون غير هذا . اني اجيد النكتة ، ويقول السيدات ان ليس من يفوقني في صيغ المديح والاطراء (بوسعك ان تضيفي ، الكذب ايضا ، فلا مديح بلا كذب) . اردت ان احدثك عن الانسة (ب) ، ان لها نفسا لطيفة طيبة تستشف بجلاء خلال عينيها الزرقاوين ، وهي تنوء بمقامها الرفيع في المجتمع اذ لا يرضي امنية من اماني قلبها ، فهي تصبو ان تكون خارج هذا الزحـــام

الصاخب . ونحن نقضي معا ساعات طويلة نتخيل حياة سعيدة خالصة وسط الحقول، بين احضان الطبيعة . ولكم ترى نفسها مسوقة للثناء عليك والاعجاب بك، انها تفعل ذلك بطيبة نفس ، ويسرها كثيرا ان تستمع الاحاديث عنك، انها تحبك يا شرلوت .

اه كم اتمنى ان اكون جالسا الى قدميك والاطفال يقفزون من حولنا فاذا ضقت بضوضائهم ذرعا جمعتهم حولي وقصصت عليهم احدى الحكايات المفزعة عن (امنا البطة) .

الشمس تختفي بجلال وراء الهضاب المكللة بالثلج . سكنت العاصفة ، وانا ... يجب ان اعود الى قفصي .

وداعا ! اين البير ، اهو الى قربك ؟ وكيف ؟ ليغفر لي الله هذا السؤال .

٨ شباط

منذ ثمانية ايام والجو مضطرب عاصف . واني لمبتهج فرح فليس من يوم صحو جميل لاينتزعه مني او يكدر على صفوه متطفل ثقيل ، اما الان والرياح تعصف والامطار والثلوج تنهمر فليس الطقس اردأ في البيت منه في الخارج، ولا افضل في الحقول منه في المدينة واني لراض مسرور ، فاذا بشرت الشمس بيوم صحو جميل لم اتمالك ان اصيح : « هي نعمة اخرى من السماء قد يختلفون من اجلها ويتنازعون ، فليس من شيء في العالم لم يضعوه موضع التنابذ والتحاسد عن سخافة وحمق . ولكنهم يدعون النية

الطيبة والطوية الخالصـــة ويحرمون انفسهم ، لمجرد اللهو ، الصحـــة والكرامة والفرح .

يقوم بنفسي احيانا ان اجثو امامهم واتضرع اليهم ان يرأفوا بانفسهم ولا يمزقوا احشاءهم بمثل هذا الغضب الاكول .

١٧ شباط

اخشى الا يطول بي عهد التفاهم مع السفير ، انه رجل لايحتمل وحسب ، فطريقته في العمل وادارة الامور على درجة من السخف لا استطيع معهـا الامتناع عن معاكسته والعمل برأيي . وليس لهذا ان يروقه بالطبع فقد شكاني اخيرا الى البلاط ، وخصني الوزير بتأنيب ناعم لطيف ولكنه تأنيب على اي حال . وكنت اوشك ان ارفع استقالتي عندما تلقيت من الوزير رسالة خاصة لم اتمالك ان جثوت اجلالا للحكمة السامية التي املتها . وهو على امتداحه افكاري المتطرفة في حدتها ونزوعها الى الهيمنة والتأثير بالغير ونفاذها الى خفايا الامور ، مما يعزوه الى جذوة الشباب المتقدة ، لايرغب اليّ ان اسعى الى اخمادها بل الى التخفيف من حدتها وايصالها الى النقطة التي يحسن فيها استعمالها ويحمد اثرها . وقد بعثت فيّ هذه الرسالة الشجاعة والعزم لمدة ثمانية ايام ، وردتني الى السلام والوفاق مع نفسي .

ان رضى النفس وأمنها الداخلي لنعمة عظيمة يا صديقي .

ترى ، لمَ تكون هذه الحلية الرائعة واهية الى هذا الحد ، على ندرتها ونفيس قدرها .؟

٢٠ شباط

ليبارككما الله يا عزيزيّ وليمنحكما السعادة التي يحتبسها عني . واني لاحضك العفويا البير ، فقد خدعتني . وكنت انتظر اعلان يوم زفافكما لاحتفل بانتزاع صورة شرلوت عن الحائط واواريها بعض الاوراق . وها قد تم قرانكما وصورتها ما تزال هنا ! وستظل ابد الدهر . ولمَ لا ؟اليس لي رسم عندكم ؟ او ليس لي انا ايضا ، دون ان اسيء اليك ، مكانتي في قلب شرلوت ؟ اني احتل فيه المقام الثاني ، واريد ، بل يتحتم على الحفاظ على هذا المقام .

اه ! اني لانفجر ثائرا ، عندما يخطر لي ان شرلوت قد تنسى ، واري جحيمي يا البير في هذا الخاطر .

وداعا يا البير . وداعا شرلوت ،يا ملاك السماء .

١٥ ايار

لحقتني اهانة في هذا البلد ستدفع بي الى هجره . اني لأصرف باسناني غيظا . يا للشيطان ! الا انه امر واقع . وانا اتوجه اليكم بلومي ، انتم الذين حرضتموني ودفعتم بي الى عمل لايصلح لي ولا اصلح له . وها كم ما وصلت اليه ، فقروا بذلك عينا . ساعرض لك الحادث بدقة المؤرخ المسجل كي لا تقول ان افكاري تضخم لي كل شيء . لقد خصني الكونت (س) كما ذكرت لك اكثر من مرة ، بحبه واعتباره . وكنت اتناول عنده طعام

الغذاء امس ، وهو موعد حفلة يستقبل فيها النخبة المختارة من نبلاء المدينة ، ولم يكن لي بها علم سابق ، ولم يخطر لي ببال قط ان نكون ،نحن عباد الله المرؤسين في غير محلنا هنا .. جميل ! جميل جدا !

وانتقلت مع الكونت بعد تناول الطعام الى القاعة الكبرى واخذنا باطراف الحديث وحضر الكونت (ب) فشاركنا الحديث واستغرقنا فيه حتى اقتربت ساعة الاستقبال ونحن لانشعر . ويعلم الله اني لم اكن افكر في شيء .

وتدخل في هذه الفترة ذات المقام الرفيع السيدة (س) مع زوجها النبيل وابنتها الغبية ذات الصدر المسطوح والجسم الممشوق المسحوب بالحبال ، ومروا امامي بخيلاء السادة المستكبرين . واردت الانصراف لكرهي هذه الفئة من الناس ولكني انتظرت الامير حتى يفرغ من ثرثرات مدعويه المرهقة . وتدخل في هذه الفترة الانسة (ب) وانا اشعر دائما بانشراح في صدري لمرآها ، فظللت واقفا وراء كرسيها ، ولم اشعر الا بعد حين بانها كانت تكلمني بشيء من التأفف والبرود يمازجه بعض الارتباك فدهشت وقلت في سري : «اتكون كسائر هؤلاء القوم ؟ فلتذهب الى الشيطان!» وكنت راغبا في الانسحاب ، الا اني بقيت آملا ان اجد ما يبرر موقفها ويبددشكو كي فيها . وكنت انتظر منها كلمة ، اية كلمة بينما كان الصالون يمتلأ بالمدعوين . فهذا البارون (ف) يرتدي كل ما في خزانته من البسة يرجع عهدها الى حفلة تتويج فرنسوا الاول ، وذاك مستشار البلاط يقدم اسمه بلقب صاحب السعادة ومعه امرأته الصماء ، ثم هذا المسكين المضحك (ج) الذي يمزج في لباسه النوع الغوطي بالازياء الحديثة .

وتحدثت الى بعض معارفي فوجدت في حديثهم بعض البرود فرحت افكر ولا اعنى بغير الانسة (ب) . ولم انتبه الى بعض السيدات يتهامسن فيما بينهن في طرف القاعة ويتناقلن بعض الحديث بين الرجال ، والى السيدة (س) تحادث الكونت ، مما حدثتني به الانسة (ب) بعد ذاك وتقدم اليّ الكونت اخيرا واخذ بي صوب النافذة وقال لي :

« انت تعرف ما في تقاليدنا من شذوذ وسخف ، فالقوم لاينظرون بعين الارتياح كما ارى ، الى وجودك بينهم ، ولم اكن لارغب مهما ... » فقلت له مقاطعا : « التمس عفوك يا صاحب السعادة ، لقد كان عليّ ان افكر بهذا من قبل ! وانك ستغفر لي بلا شك هذه الهفوة ، وقدنويت الانصراف فردتني عنه روح شريرة . » قلت هذا مبتسما وانا انحني له مودعا فصافحني وضغط على يدي بشدة تنم عن بالغ تأثره . وحييت الحفل الكريم .. وخرجت فأخذت مركبة واتجهت الى (م) لاستمتع من فوق الجبل بمشاهدة المغيب ، ورحت هناك اقرأ لهوميروس ذلك النشيد الجميل الذي يصف فيه كيف نزل اوليس ضيفا عزيزا على راع شهم من رعاة الخنازير ، مما كان له اثره الطيب في نفسي . ورجعت في المساء لتناول العشاء في الفندق فلم ار سوى بعض الاشخاص يلعبون النرد على طرف طاولة ازاحوا قسما من غطائها واقبل ادلين الشهم فعلق قبعته وهو ينظر اليّ ثم جاءني يقول بصوت خافت : « هل حدث لك ما يزعج ؟ »

— انا ؟

— « طلب اليك الكونت مغادرة صالونه . »

— الى الشيطانه صالونه ! ... لقد خرجت استنشق الهواء النقي .

— « هذا جميل ولك ان تضحك وتحمل الحادث هذا المحمل ، ولكني مستاء لانتشار الخبر . »

وهنا شعرت بألم الجرح ، وخيل اليّ ان كل الذين يتطلعون نحوي من الجالسين على المائدة ، على علم بما جرى ، واخذ الدم يغلي في عروقي .

اما الآن ! وانا استمع حيث ذهبت ان حسادي قد انتصروا وانهم يقولون : « هـذا خليق بكل دعيّ يتحدى التقـاليد بالنزر اليسير من المعرفة والذكاء » وغير ذلك من حماقاتهم ، فاني شعر احيـانا بحاجة الى خنجر يمزق احشائي . ولنقل ما نريد في فضيلة الاعتدال وضبط النفس فاني لا اعرف من يستطيع الصبر على سماع هؤلاء السفلة ينالون منه بمثل هـذا النقد الاليم . وليت حديثهم لم يكن ذا اساس ، فقد كان حريا بنا ان نمر به مرور الكرام .

١٦ آذار

كل ما حولي الب علي يتآمر ضدي .

صادفت اليوم الانسة (ب) فلم املك من التحدث اليها ، ولما انفردنا قليلا عن الصحب شرحت لهـا مبلغ تأثري لموقفها المنكر في ذلك اليوم فقالت متأثرة : « ايحق لك يا ڤرتر ان تفسر بهـذا الشكل ما كان من اضطرابي ، وانت تعلم ما يكنه لك قلبي . فلشد ماتألمت مذ دخلت الصالون . لقد توقعت ما جرى ، وصممت مرات ان انهض واحدثك . كنت اعلم ان عائلتي (س) و (ت) تؤثران مغادرة الحفلة على تحمل وجودك بينهم ، وان الكونت لا يجرؤ على مخالفتهم . واليوم ، اية ضجة يا الهي ! »

فصرخت : « كيف . ماذا يا آنسة؟ » وانا اجهد في اخفاء تأثري واضطرابي، اذ شعرت بكل ما قاله ادلين اول امس يجري حمما في عروقي . واضافت هذه الفتاة الرقيقة الطيبة والدموع تجول في عينيها : « لشد ماعانيت! »

وبلغ بي التأثر ان كدت اخرج عن رشدي وارتمي على قدميها، وقلت لها : « ارجوك ان تفصحي » ورأيت الدموع تجري على خديها فتمسحها وهي لا تحاول اخفاءها ، واكملت : « انك تعرف عمتي ، كانت حاضرة وشاهدت كل شيء ، اواه ، بأي عين كانت تشاهده ! ثرتر ، لقد تحملت اللوم الشديد على صلتي بك واضطررت ان استمع الى ما يحط بك ويذل من قدرك دون ان استطيع او اجرؤ على الدفاع عنك . »

كانت كل كلمة تتلفظ بها بمثابة حربة تطعن قلبي ، ولم تكن تدري انه كان ادعى الى الرحمة بي والرثاء لحالي ان تخفي عني كل هذا . واضافت كل ما يتقوله الناس عن حادثتي ، واي ظفر يجد فيها احقر الناس واولاهم بالكره ، وكيف يذيعون في كل مكان ان كبريائي وهذا الازراء بالآخرين ، مما كانوا يأخذونه علي منذ زمن طويل قد لقيا ما يستحقان من قصاص وعقاب .

ولكم كان وقع حديثها شديدا عليّ يا وليم ، وانا اسمعها تقوله بتلك اللهجة الشفوقة الرحيمة . شعرت بقواي تضمحل وقلبي يتأكل بنار الغضب ووددت لو يتصدى لي من يواجهني بسوء لاخترق اضلاعه بسيفي ، ان مشاهدة الدم لادعى الى هدوئي وسكون نفسي .

اه ! كم مرة امسكت بخنجري لافرّج عن ضغط صدري واريح قلبي. قيل ان بعض الجياد الكريمة ، اذا ما ارهقها التعب ، فصدت بدافع

الغريزة عرقا من عروقها حتى يسهل عليها التنفس . واني لاحس بمثل هذه الحاجة فأود لو اقطع لي عرقا ينيلني الحرية الابدية .

٢٤ آذار

قدمت للبلاط استقالتي وارجو ان يتم قبولها . وانا اسألك الصفح لعدم استئذانك فيها مقدما ، فقد كان حتما علي ان اذهب ، وانا اعرف ما كان بوسعك ان تقوله لتقنعني بالبقاء ، وحسبك ان تجهد الآن لتخفف عن امي مرارة هذه الكأس . اني لم اوفق الى اسعاد نفسي ، فليس لامي ان تحزن ان لم استطع اسعادها . انها ستتألم بلا شك ان ترى ابنها يقف فجأة ، في سبيله الى منصب المستشارية ، ويعود ادراجه مخذولا فيضع جواده في الاصطبل ويستريح .

افعلوا ما يحلو لكم وعددوا كل البواعث التي كان يجب ان تهيب بي الى البقاء ، فقد تركت وحسب ، ولكي تعرفوا وجهتي اقول لكم اني تعرفت هنا بالامير ... وهو يستلذ مجالستي ، وقد رجاني عندما علم بامر استقالتي ان اصحبه الى مزارعه واقضي فيها الربيع وستكون لي هناك حريتي التامة ، وبما اننا متفاهمان الى حد ، فسأجرب حظي واذهب معه .

١٩ نيسان

اقدم لك شكري على رسالتيك ، وقد تأخرت بالاجابة حتى يصلني رد البلاط على طلب استقالتي فلا تتدخل امي لدى الوزير وتفسد علي خطتي . ولكن القضية اضحت الآن منتهية فقد جاءني قبول الاستقالة ولست اجد

فائدة ان اذكر لكم مبلغ استنكار البلاط وأسفه وما كتبه لي الوزير فستنفجرون علي باللوم . وارسل اليّ ولي العهد خمسا وعشرين دوقية على سبيل المكافأة ارفقها بكلمة اهاجت شجوني واستدرت مدامعي . لم تعد بي حاجة اذن الى الدراهم التي طلبتها من امي في رسالتي الاخيرة .

٥ ايار

سأرحل غدا ، ولما كانت الاماكن العزيزة التي رأيت فيها النور لاتبعد عن طريقي سوى ستة اميال فسأذهب لمشاهدتها واذكر تلك الايام اللطيفة التي انقضت وتلاشت كحلم . وسأدخل من الباب الذي ولجته مع امي وانا صغير ، عندما غادرنا تلك الربوع بعد وفاة والدي لنقطن مدينتكم التي لا تحتمل .

وداعا يا وليم ، وسأواصلك بانباء سفري .

١٩ ايار

لم يتح لحاج قط ان ينعم بالاماكن المقدسة بمثل ورعي وخشوعي في الربوع التي رأيت فيها النور ، او ان يحس فيها بما جاش به صدري من مشاعر جديدة غريبة لم اكن اتوقعها .

اوقفت عربتي قرب زيزفونة كبيرة قائمة على بعد ربع ميل من المدينة فنزلت وقلت للسائق ان يتوجه وحده كي اسير على قدمي فابتعث عهد طفولتي واتذوق ذكرياتها الحية بمجالي جدتها ووهجها الاول .

وقفت هنا تحت الزيزفونة التي كانت في حداثتي غاية نزهاتي وحدها النهائي . ولشد ما تغير بي الحال !

كنت انطلق من قبل وانا في نعيم جهلي ، تملؤني الرغائب والمنى ، الى العالم المجهول ، اعب منه لقلبي افراحا ومسرات حقيقية يطفح بها . وها انا اعود من هذا العالم اليوم بقبضة من الآمال الخائبة والخطط المعكوسة . وها هي تنتصب امام عيني هذه السلسلة من الجبال التي كثيرا ما تأملتها بعين المحب المشوق . فلكم جلست هنا ، الساعات الطوال انتقل بالفكر بعيدا ، وتستغرق نفسي وتغيب في تأمل هذه الغابات والوديان المسربلة بوشاحها البخاري وكأنها تبتسم لي عن بعد . ولشد ما كان يشق علي ، عندما تحين عودتي ، ان انتزع نفسي من مشاهد عالمي برؤاه الفاتنة .

اقتربت من المدينة وانا احيي البساتين والبيوت الصغيرة التي تعرفت اليها . اما البيوت الحديثة فلم يكن لها وقع رضي على قلبي . فلشد ماتؤلمني التغييرات الطارئة . ووصلت الباب الكبير فوجدتني هنا بسائر كياني ومشاعر نفسي . لن اشرح لك التفاصيل يا وليم فمهما تكن فتنة المشاهد التي رأيتها ، فلن آتيك بغير وصف باهت ممل .

وعزمت ان اتخذ منزلي في هذا الميدان الى جانب بيتنا القديم تماما . وقد لاحظت وانا اسير اليه ان المدرسة التي كانت تحشرنا فيها تلك العجوز قد تحولت الى دكان عطار . وذكرت قلقي ودموعي وانقباض نفسي في هذا السجن الصغير .

لم اكن اخطو خطوة واحدة لا تثير فيّ بعض الذكريات . كلا وانا اعيد القول : « ليس لحاج يزور الارض المقدسة ان يجد معالمَ تثير في قلبه

مثل هذه الذكريات التقية ، او يغمر نفسه هذا الحنان المقدس .

وهبطت سائرا على شاطىء النهر حتى وصلت الى مزرعة كنا نقصدها كثيرا في ما مضى فنتبارى مع الرفاق في قذف الحجارة لنرى ايها اكثر وثوبا على صفحة الماء .

واني لاذكر كيف كنت اقف احيانا لأتأمل مياه النهر ، وبأي فرضيات وتخيلات كنت اتتبّع مجراه ، والافكار العجيبة التي كنت اصوغها عن المناطق التي ينبع منها ، وكيف كان يجد خيالي امامه حدودا فيسير مع ذلك ولا يقف ، كأني بقوى خفية تدفع به الى السير ابعد فأبعد ، حتى اتيه في تأمل بعدٍ لا نهاية له .

اترى ايها الصديق الى اجدادنا الطيبين . لم تكن تزيد معلوماتهم عنا ونحن الاطفال ، لقد كان حدهم هذا الشعور الصبياني ، ومع هذا فقد كان في براءتهم وايمانهم الساذج شيء من العظمة والجلال . فعندما يتكلم اوليس عن البحر العظيم والارض التي لا نهاية لها ، الا نجد قوله على اكثر من الصدق والحساسية والرهبة الخاشعة ، ونراه اجدر بطبيعة الانسان وامكانياته مما يقوله طالب علم ، يرى نفسه في هذه الايام اعجوبة عصره ، لانه يستطيع ان يردد القول ، بان الارض كرة ؟

الارض ! ان ما يلزم الانسان منها ، حفنات تقوم باوده واقل منها لراحة بقاياه .

اني اعيش الآن في قصر الامير الريفي . ويبدو لي ان الحياة مع الامير ما تزال ممكنة . انه رجل بسيط صادق الطوية ، ولكنه محاط بأشخاص غرباء الاطوار ، ان لم تبدو على وجوههم علائم الخبث والاحتيال

فهي لا تنم عن قوم شرفاء طيبين . انهم يتقربون الي ّ ولكني لا أجرؤ على الوثوق بهم . ومما يزعجني ان الامير يتحدث احيانا عن اشياء يعرفها بالسماع او القراءة ومن الزاوية التي عرضت عليه دائما .

وشيء آخر ، انه معجب بفكري ومواهبي اكثر من اعجابه بقلبي . وقلبي وحده مصدر كبريائي ، انه وحده منبع كل شيء في ّ ، كل قوة وكل سعادة وشقاء . اواه ! ان ما اعرفه يستطيع كل احد ان يلم به ، ولكن قلبي ليس بميسور لكل احد .

٢٥ ايار

كنت ابيّت شيئا لم ارد مكاشفتك به قبل وقوعه ، اما وقد زال احتماله الآن فبوسعي ان اقوله لك : كنت انوي الذهاب الى الحرب .

وقد ظل هذا الحلم يراود قلبي زمنا ، وكان اقوى دافع حدا بي ان اتبع الامير الى هنا . والامير جنرال في الجيش الروسي ، وقد كشفت له عن عزمي في نزهة لي معه فصدني عنه . وانه لمن العناد والطيش الا اركن الى الاسباب والتعليلات التي اوردها .

١١ حزيران

قل ما تشاء فلن استطيع البقاء طويلا . ماذا عمل هنا ؟ لقد اخذ الملل يساورني . ان الامير يعاملني معاملة الند النظير ، ولكني على غير سجيتي وانطلاقي ، والحق ليس من صلة مشتركة بيننا ، انه ذكي الفكر الا ان تفكيره عادي . ولا يلذ لي حديثه اكثر من كتاب حسن الصيغة والتأليف .

سأظل ثمانية ايام اخرى ثم استأنف اسفاري . وخير ما فعلته خلال مقامي هنا عنايتي بالرسم . والامير هاو بارع ، وكان بوسعه ان يكون فنانا لولا تقيده بالمصطلحات والقواعد . وكثيرا ما اصرف بأسناني غيظا ونفاد صبر عندما اتقد حماسا لأزيد من شعوره واحساسه بالطبيعة ، وارفعه الى الفن ، بينما يحسب نفسه قد اتى عجبا ان استطاع ان يقحم في الحديث مصطلحا فنيا .

١٦ تموز

اجل ، ولا ريب ، لست سوى مسافر جوال ، حاج على الارض . اوَ يكون الانسان اكثر من هذا ؟

١٨ تموز

الى اين اتوخى السفر ؟ سأقوله لك سرا ، سأمكث خمسة عشر يوما ، وكنت اقول في سري : « سأذهب بعدها لزيارة مناجم ... » والحق ، لا شيء من هذا ، انما اردت ان اقترب من جو شرلوت .

اني اضحك واسخر من قلبي ، واقضي له رغائبه كلها .

٢٩ تموز

كلا ، هذا حسن ، وكل شيء يسير على ما نشتهي . انا ... زوجها ؟ لو منحتني هذه الغبطة ، ايها الاله الذي وهبني الحياة ! لأضحت ايامي

على الارض عبادة وصلاة لك دائمة . ولست اريد التمرد على مشيئتك ، فاغفر لي هذه الدموع ، اغفر لي هذه الاماني العابثة . هي ... امرأتي ! اه لو كان لي ان اضم بين ذراعي الطف مخلوق تحت السماء . ان الرعشة تسري في جسمي كله يا وليم ، عندما يضم البير قدها الرشيق . ومع ذلك ، أأقول ؟ ولمَ لا اقوله يا وليم ؟ كان بوسعها ان تكون معي اسعد واهنأ منها مع البير . اواه ! ان البير ليس بالرجل الذي يحقق كل اماني ذلك القلب ، لبعض النقص في حياته العاطفية ، بعض ... ظن ماتشاء، ان قلبه لا ينبض شغفا لقراءة كتاب عزيز ، حيث اشترك مع شرلوت ويلتقي قلبانا فيؤلفان قلبا واحدا في الف مناسبة يصدف لنا ان نصرح فيها بعواطفنا المشتركة ازاء الحوادث .

اجل . انه يحبها بكل جوانحه ، أفلا تستحق مثل هذا الحب ؟

دخل علي احد الثقلاء فقطع سلسلة افكاري .

لقد جفت دموعي ، وذهلت عما بي . وداعا يا صديقي .

٤ آب

لست باول من يستحق الرثاء والاشفاق في هذا العالم ، فشأن الناس جميعا على الارض ان يخيبوا في آمالهم وامانيهم .

ذهبت ازور المرأة التي لقيت اطفالها في ظل الزيزفون فخفّ اليّ ابنها البكر وندّت عنه صرخة فرح التفتت لها امه فبدت لي محطمة مرهقة وكانت اولى كلماتها : « اواه ياسيدي ، مات صغيري هانس . » وكان اصغر اطفالها . ولبثت صامتا فقالت : « وزوجي رجع من سويسرا ولم يأتنا بشيء ،

ولولا بعض النفوس الكريمة لاضطر الى الاستجداء ، فقد اصابته حمّى في الطريق . » ولم استطع ان اقول لها شيئا . ومنحت الصغير بعض النقود واستجبت رجاء الام فقبلت بعض التفاح ، وغادرت هـذا المكان المفعم بالخواطر الحزينة .

٢١ آب

كل شيء يتبدل في نفسي باسرع من تقليب الكف ، فيرتفع نحوي احيانا قبس لطيف من شعاع الحياة يغمرني ببعض ضيائه ، للحظات صغيرة مع الاسف . وعندما اهيم في عالم احلامي يراودني هذا الخاطر فلا استطيع له دفعا : ماذا .. لو يموت البير فتضحي ... اجل تضحين يا شرلوت ...

وأسترسل مع هـذا الخيال حتى يقودني الى هـاوية سحيقة فأقف وارتد مرتعشا .

واذا خرجت من المدينة وسرت في الطريق التي اجتزتها بالعربة اول مرة ذهبت فيها لاصحب شرلوت الى الحفلة ، راعني هذا التبدل الطارىء . لقد امّحى كل شيء وزال ، ولم يبق لي من عالم مضى ما ينبض له قلبي بخالجة من فيض تلك العواطف . اني لاشبه بشبح ذلك الامير ، وكان سيدا خطيرا بنى له في الحياة قصرا منيفا زينه بالرياش الثمينة والتحف النادرة وتركه لابنه الوحيد ، ثم عاد فرآه اطلالا مهدمة .

٣ ايلول

لا افهم احيانا كيف يستطيع انسان غيري ان يحبها او يجرؤ على

حبها ، وهي التي استأثرت بحبي ، حبي العميق الاوحد ، حتى لا اعرف ولا اجد لي سواها حبيبا في الدنيا .

٤ ايلول

هكذا ... كلما اقتربت الطبيعة من خريفها ، احس الخريف من حولي وفي قلبي .

اوراق الاشجار ترتعش تحت يد الريح فتتساقط وتنتثر ، واوراقي تصفرّ وتذبل .

اتذكر يا وليم ما حدثتك به عن فتى قروي رأيته اول مرة جئت الى هنا .

سألت عنه في وَلهِم فقيل لي انه طرد من البيت الذي كان يعمل فيه ولم يشأ احد ان يزيدني علما . ورأيته امس مصادفة على طريق قرية اخرى فتحدثت اليه وسرد لي قصته . وكان تأثري لها شديدا ، كما ترى عندما اقصها عليك .

ولكن ما الفائدة ؟ ولمَ لا احتفظ لنفسي بما يحزنها ويجعلني شقيا بائسا؟ ولم احزنك انت واعطيك المجال دائما لتأسى لحالي او تؤنبني ؟ من يدري، قد تكون لهذا صلة بقدري .

لم يجب الفتى على اسئلتي في البدء ، بغير مظهر كآبة عميقة يشوبها بعض الحياء . ولكنه استرسل بعد قليل ، وكأنه قد تعرف الى نفسه وعرفني فجأة ، فاعترف لي بخطيئته وراح يشرح لي مصابه .

كيف استطيع يا صديقي ان انقل اليك كل كلمة من كلماته ؟

قال لي بشيء من اللذة ، كأنه يتذوق ذكرياته ، ان حبه لسيدته قد زاد يوما بعد يوم حتى لم يعد يعرف ما يفعل ولا يدري حسب تعبيره ، اين يضع رأسه . فقد عافت نفسه الطعام وجفى عينه الكرى واحس بشعور من يختنق ، فكان يعمل مالا يجب عمله وينسى مايؤمر بالقيام به حتى لكأن روحا شريرة قد تملكته . وعلم مرة انها صعدت الى غرفة في الطابق العلوي فلحق بها ، اذ وجد نفسه متجذبا بقوة اليها ، وهو لا يدرك الآن كيف وصل معها الى مثل هذا الحد ، وانه ليشهد عليه ربه ، ان لم تكن له نحوها الا مآرب شريفة بريئة وانه لم يتمنى يوما الا ان يتزوجها ويسعد بالحياة معها .

وبعد ان تحدث طويلا تردد برهة وتوقف كمن بقي له شيء آخر ، لا يجرؤ ان يقوله ، ثم اعترف لي وهو مستحيي بالمداعبات والمؤانسات الطفيفة التي كانت تسمح له بها احيانا . وتوقف هنا وردد مستدركا ، انه لا يفعل هذا لمجرد الطعن بها والنيل منها فانه ما يزال يحبها ويجلها كالسابق وان شيئا من هذا لم يكن ليجري على لسانه وانما ذكره ليقنعني بأنه لم يكن مجترأ غرا . وهنا يا صديقي اردد عليك اغنيتي القديمة ونغمي الدائم : ليتني استطيع ان اصور لك هذا الرجل كما بدا لي وكما يتمثل الآن لناظري ، لو استطيع ان اقول لك كل ما قاله ، بالضبط ، لتشعر بمبلغ اهتمامي لمصيره ، ولكن هذا حسبي فأنت ادرى بي وبقدري ، وبوسعك ان تعرف ما يجذبني نحو هؤلاء البائسين وهذا المسكين خاصة .

لحظت وانا اعيد قراءة ما كتبت انني نسيت ان اذكر لك نهاية القصة . وانه ليسهل عليك ان تتخيلها . فقد تمنعت المرأة ودافعت عن نفسها واسرع شقيقها ، وكان يكره الفتى ويود صرفه من خدمتها خشية زواج

جديد يحرم ابناءه ارثها الكبير ، فطرده لفوره واثار من الضجة ما يمنع على شقيقته ، وان بدا لها ، ان تعيده الى خدمتها . ولديها الآن خادم آخر ، وقيل انها اختلفت مع شقيقها من اجله ايضا . ويرى بعضهم ان زواجها من الخادم الجديد اصبح مؤكدا .

اما صاحبي المسكين فقد قال لي ان هذا لن يقع وهو على قيد الحياة .

ليس فيما قصصته عليك مبالغة او تجميل واستطيع ان اقول على عكس هذا اني قد سردته بشكل ضعيف وافسدته بهذه المبالغة والتهويل.

ان هذا الحب العظيم ، هذا الاخلاص وهذه العاطفة المتأججة العارمة ليست اذن بخيال اوهام شاعر ، بل هي تعيش في اجلى صفائها وطهرها لدى هؤلاء الذين ندعوهم قساة متحجري القلوب ، ويبدون لنا ، نحن المتمدنين ، وقد افضى بنا الصقل والتهذيب الى لا شيء ، كأنهم جمادات مجردة من العواطف .

ارجو ان تقرأ هذه القصة بخشوع يا وليم ، وقد كتبتها لك وانا حليم هادىء ، وانت ترى ان الحبر لم ينتشر هنا وهناك ، وقد خلا القرطاس من البقع المعتادة . اقرأ يا صديقي واذكر انها قصة صديقك ايضا . اجل هذا ما جرى لي ، وما ينتظرني غدا .

على اني لا املك شجاعة هذا البائس المسكين ، وليس لي نصف ما اوتي من ثبات وعزم .

٥ ايلول

كانت قد كتبت الى زوجها ، وقد احتجزته بعض الاعمال في الريف ،

كلمة جاء في مستهلها : « رفيقي ، يا رفيقي الحنون اسرع بالعودة ما استطعت ، فاني انتظرك بلهفة وشوق . » ثم جاءها صديق ابلغها ان ظروفا خاصة تعوق البير عن الاسراع في العودة فبقي الكتاب عندها ووقع بين يدي في المساء فقرأته وابتسمت . وسألتني عن سبب ابتسامي فقلت : « يالليخيال ! ما اعظمه منحة الهية . فقد خيل اليّ برهة ان هذه الكلمات موجهة اليّ ! »

وبدت شرلوت كأنها غير راضية ، فأمسكت عن الكلام .

٦ ايلول

لقيت بعض الجهد في حمل نفسي على ترك (الفراك) الازرق البسيط الذي كنت البسه عندما رقصت مع شرلوت اول مرة ، ولكنه كاد يضحي رثا باليا ، فصنعت فراكا ثانيا يشبه الاول تماما ، الياقة والتوشيح والصدار والسروال كلها من ذات القماش واللون الا ان الحلة الجديدة لم تقم عندي مقام الاولى ، ولعلها تضحي مع الزمن عزيزة عليّ كتلك .

١١ ايلول

تغيبت بضعة ايام لدى البير في الريف ، ودخلت غرفتها اليوم فخفّت لمقابلتي ولثمت يدها بفرح ونشوة . وطار من المرآة كناري حل على منكبها فأخذته بيدها وقالت : « صديق جديد لتسلية اطفالي ، اترى كم هو جميل ، عندما اقدم له الخبز يصفق بأجنحته وينقر بلطف ، وهو يحسن تقبيلي ايضا ، اترى ؟ » وعندما قدمت فمها للطائر الصغير أخذ ينقر في

شفتيها الحلوتين ويضغط عليهما بحنان ورفق كأنه يتذوق طعم السعادة التي ينعم بها . ثم قربت الطائر من فمي وهي تقول : « يجب ان يقبلك انت ايضا . » وانتقل منقاره الصغير من شفتي شرلوت الى شفتي ، وكانت نقراته الخفيفة كالنسمات الاولى تهب علينا بشائر لملذات الحب ومتعه .

قلت لها : « ان قبلاته ليست بريئة من الغرض ، انه يبحث عن غذاء ، وانه ليرتد غير راض عن هذه المداعبة الفارغة . » وقالت شرلوت : « انه يأكل من فمي ايضا وقدمت له بعض الفتات على شفتيها ، وقد تألقتا بفيض من الفرح البريء وافترتا عن بسمات سماوية . ووليت بوجهي ..

ما كان ينبغي لها ان تلهب خيالي بصور هذه البراءة وهذه الغبطة الالهية . ما كان لها ان توقظ قلبي من هذا السبات يستغرقه فيه احيانا عدم الاكتراث بالحياة . ولكن لمَ لا تفعل ؟ انها واثقة بي ، تعرف اي حب احبها .

١٥ ايلول

ان نفسي لتثور ياوليم عندما ارى في هذا العالم اناسا حرموا نعمة العاطفة والروح حتى لتصدف نفوسهم عن هذا القليل من المتع التي تساوي شيئا له قيمة ، او تستحق التفاتا في الحياة .

كنت قد حدثتك عن شجرتي الجوز التي تفيأنا ظلالهما مع شرلوت عند القس ... كانتا تشيعان في نفسي لا ادري اي امن ورضى وتجعلان بهو الدير لطيفا ومضيفا كريما . لله ما كان اجمل اغصانهما النضيرة والخواطر

العذبة تثيرها ذكريات القسس الكرام الذين غرسوهما قبل سنين طويلة . وكان معلم القرية قد ذكر لنا اسم احدهم ، وقد حدثه به جده فامتدح دماثة خلقه ، وكانت ذكراه تطوف بخاطري عطرة مقدسة كلما جلست الى ظل الجوزتين .

ورأيت الدموع تترقرق في عيني هذا المعلم امس وهو ينبئني شاكيا ، ان الشجرتين قد قطعتا . قطعتا ! اني لأستطيع ان اقتل في ثورة غضبي هذا الكلب الذي اعمل فيهما اول ضربة فاس . وقد كنت خليقا ان يستبد بي الحزن ويعصف بي الالم لو كان لي مثل هاتين الشجرتين فاذوى باحداهما الهرم . ولكن ما يبعث في قلبي العزاء يا صديقي ، هذا الحنان والعاطفة الرقيقة في صدور الناس ، فان القرية كلها تتململ وتشكو ، واني لآمل ان تجد امرأة القس ، في ما ياتيها به اهل القرية عادة من زبد وبيض وغيرهما من علائم الود ، اي طعنة وجهتها الى سكان المنطقة ، اذ هي امرأة القس الجديد (توفي قسنا العجوز) تلك التي قضت بقطع الشجرتين . وانها لمخلوقة عجفاء هزيلة لا تهتم لاحد في العالم اذ ليس من يهتم لها ، وهي حمقاء مخبولة تدعي العلم وتعنى بدراسة قوانين الكنيسة وتعمل جادة في اصلاح قواعد النقد الخلقي في الديانة المسيحية ، وتقف جامدة تهز كتفيها استخفافا بتأملات لاڤاتر (*) . وصحتها مهدمة فليس لها بالتالي اية افراح على الارض . ولم يكن لغير مخلوقة كهذه ان تقطع شجرتي العزيزتين . اترى ، اني لا اكاد اصدق .

(*) لاڤاتر فيلسوف شاعر وعالم سويسري من اشهر علماء الدين البروتستنتي ويعتبر واضع الاسس الاولى لعلم الفراسة .

تصور معي هذه الاوراق المتساقطة كيف تلوث الدار وتجعلها رطبة قذرة، والاغصان التي تحجب عنها ضوء النهار، ثم هؤلاء الاولاد يرشقون الجوز بالحجارة عند نضجه، وهذا مما يثير اعصابها ويشوش عليها تأملاتها العميقة عندما تقابل وتوازن بين كينيكوت، وسمار، وميخائيليس (*).

وعندما رايت اهل القرية متذمرين آسفين، وشيوخهم خاصة، قلت لهم: «ولمَ رضيتم بهذا؟» فاجابوا: «وما الذي نستطيعه نحن عندما يريد المختار شيئاً هنا.» ولكن هناك ما افرحني: فقد اراد القس ان يستفيد على الاقل، من جنون امراته فاتفق مع المختار على اقتسام ثمن الشجرتين. الا ان مصلحة الاملاك تدخلت في الوقت المناسب وقالت لهما: «مهلا!» فقد كان لها حقوق قديمة على قسم من ارض الدير تقوم فيه الشجرتان. ومن ثم عمدت الى بيعها بالمزاد العلني.

اه لو كنت اميرا في هذا البلد! اذن لعرفت كيف اعامل امرأة. القس والمختار ومصلحة الاملاك...

امير! اواه، نعم! وما تهمني اشجار بلادي كلها لو كنت اميرا!..

١٠ تشرين الاول

لشد ما يبهجني رؤية عينيها السوداوين.

ولكن ما يحزنني ان البير لايبدو سعيدا بالقدر الذي كان..يأمله، لو..

Kennicot : عالم متضلع من اللغة العبرية.

Semler : عالم ديني خلف مؤلفات قيمة في دراسة الاناجيل.

Michaelis : عالم لاهوتي اشهر اثاره ترجمة العهد القديم للالمانية.

اني لااحب تقطيع عباراتي . ولكني لااستطيع التعبير هنابشكل آخر ، ويبدو لي ان هذا واضح .

١٢ تشرين الاول

حل اوسيان محل هوميروس من قلبي . اي عالم عجيب تنقلني اليه اناشيده السماوية ! اني لأهيم معه بين اشجار الخلنج (*) تعصف بها الرياح المدوية الثائرة والتي تحمل بين طياتها ، في ضوء القمر الشاحب ، ارواح الجدود ، شاردة فوق الغيوم الطافية . واستمع شكاة الارواح تئن في المغاور ، ويخفت من صوتها هدير السيل في الغابة . وتصل اذني تنهدات الصبيّة التي تحتضر قرب احجار اربعة مكللة بالاعشاب تضم رفاة حبيبها الذي استشهد في ميدان المجد . وعندما التقي بالشاعر الشيخ ، فاراه وقد كلل هامته البياض يبحث بين اشجار الخلنج عن آثار آبائه ، فلا يجد غير حجارة قبورهم ، واتطلع اليه كيف يتحول بناظريه حزينا شاكيا ، الى نجمة المساء ، وهي تغيب في البحر المتلاطم ، فتنبعث في نفسه ذكريات الايام الخوالي حيّة متوهجة ، ايام كان ينير هذا الكوكب سبل الرفاق الابطال فتهتدي به سفنهم المظفرة . واقرأ على جبينه الألم العميق ، وانظر اليه وهو آخر من بقي من صحبه على الارض ، كيف يسير الى قبره وحيدا مرتعشا واجفا . انه ليستمد من ظلال ابائه الجامدة افراحا شجية ويتطلع الى الارض الندية والاعشاب الكثيفة تطويها يد الريح فيصرخ : « غدا

(*) شجر ينبت في الارض البور ، حبه كالخردل وله زهر احمر واصفر وابيض ويطلق اسمه ، استعارة ، على الارض القفر .

ياتي المسافر . ياتي ذلك الذي عرفني في فتوني وبهائي ويسأل : اين الشاعر الجوال ؟ اين الشريف ابن الملك فنجال ؟ ان قدميه تطآن لحدي ويبحث عني عبثا على الارض . » عندها ، اجدني قادرا ايها الصديق على انتزاع سيفي ، شأن الفارس النبيل ، فانقذ بطعنة اميري البطل من عذاب حياة يائسة وموت بطيء ، ثم ارسل روحي في اثر هذا النصف الله ، المنطلق من اساره .

١٩ تشرين الاول

اواه ! هذا الفراغ ! هذا الفراغ الرهيب احسه في قلبي. كثيرا ما اهتف لنفسي: « لو يتاح لك مرة ، مرة واحدة ان تضمها الى صدرك ، اذن لامتلأ هذا الفراغ . »

٢٦ تشرين الاول

اجل ياصديقي . اني لازداد مع الايام يقينا بان حياة الانسان شيء تافه ، جد تافه .

جاءت لزيارة شرلوت صديقة لها . ودخلتُ الغرفة المجاورة ابحث لي عن كتاب ، الا اني لم استطع القراءة فجلست اكتب . وسمعتهما تتكلمان بصوت خافت وتتناقلان اخبار المدينة بشيء من عدم الاكتراث ، « هذه تزوجت ، وتلك مريضة ، سعالها جاف وخداها غائران وتذوي بها العلة في كل لحظة . » وتزيد رفيقتها « ولست اراهن على حياتها بفلس . » وقالت شرلوت : « والسيد (ن) ليس افضل منها حالا ، انه متورم . » ونقلني

خيالي الى جانب هؤلاء البائسين فرأيت باي احتقار يتولون عن الحياة بوجوههم . وكيف ...

وليم . ان سيدتينا الصغيرتين كانتا تتحدثان عنها كما تتحدثان عادة في شيء تافه او موت رجل غريب . وعندما اتطلع حولي وافحص هذه الغرفة فارى ثياب شرلوت واوراق البير وهذا الاثاث الذي اضحى اليفا على قلبي، اهتف لنفسي : « اترى ياثرتر الى مكانتك في هذا البيت ، انت الكل في الكل . فاصدقاؤك يخلصون لك الود وانت في الغالب مصدر افراحهم ، ويبدو لقلبك انه لايستطيع احتمال فراقهم ، ومع هذا اذا رحلت ونأيت، فهل يشعرون بالفراغ الذي يحدثه بعدك في مجرى حياتهم ، ولاي فترة من الزمن ؟ اواه . ان الانسان لفان سريع الزوال . ففي المكان الذي يشعر فيه بكامل وجوده ، وحيث يستطيع ان يترك طابع كيانه الحقيقي ، انه هنا ايضا ، في ذاكرة اصحابه وقلوبهم ،سرعان ما يئول الى الفناء والعدم .

٢٧ تشرين الاول

اكاد امزق صدري واحطم راسي عندما ارى قلة ما يستطيعه بعضنا للبعض الآخر ، من خير في هذا العالم .

فان لم تنبجس من داخلي ينابيع الحياة والحب والفرح فليس بوسع انسان ان يدخلها الى صدري . ولست بمستطيع ان الج بقبس من مباهجي وافراحي قلب شقي بائس تتداعى قواه ويقف امامي جامدا موهنا

في المساء

ان في نفسي غنى ! وحبها يلتهم كل شيء .
ان بي لغنى ! وبدونها يضحي كل شيء هباءً وعدما .

٣٠ تشرين الاول

لكم هممت ان ارتمي على عنقها ! الهي ، انك تعلم كم يشق علينا ان نرى هذه المفاتن تروح وتجيء امامنا ، فلا نجرؤ ان نمد لها يدا . وطبيعتنا البشرية على هذا ، تهفو بنا ان نتناول ونأخذ . الا تصبو نفوس الاطفال الى نوال كل ما يقع تحت حواسهم ومداركهم ؟ وانا ؟ ..

٣ تشرين الثاني

يعلم الله كم أويت الى سريري وقد تملكتني الرغبة وحداني الامل الا افيق ابدا . وافتح عيني في الصباح فأرى الشمس واشعر بشقائي وبؤسي .

اه ، لو كنت معتوها اصابه مس من خبال ، اواستطعت ان اعزو شقوتي الى الدهر ، الى مساع خائبة او اشياء اخرى ، اذن لخف عن كاهلي بعض العبء . ولكني شقي يائس ، وهي خطيئتي وحدي . خطيئتي ! كلا ، اني لاحمل بين جنبي علة عذابي وشقائي وقد كان مصدر سعادتي وفرحي .

الست ذلك الانسان نفسه الذي كان يسبح في ما مضى في فيض لا ينضب من الحساسية ، وتنبثق امامه الجنان في كل خطوة يخطوها ؟ الم

يكن لي ذلك القلب الذي كان يستطيع في غمرة حبه ان يعانق العالم بأسره؟ اما الآن ، فقد ذوى وغاضت منابع فرحه . لقد جفت مآقيّ وعصى حواسي الدمع المواسي الهتون ، فجفت هي ايضا ، وخط السقم والقلق الاخاديد على جبيني .

لشد ما اعاني ! لقد زالت بواعث فرحي وحبوري ، وفقدت تلك الغبطة الالهية التي كنت اخلق بها العوالم من حولي .

وعندما اسرّح الطرف من نافذتي ، صوب الهضاب البعيدة فأرى من فوقها شمس الصباح تخترق حجب الضباب وتلمع فوق المروج الوادعة ، ويسعى اليّ النهر منسابا بين اغصان الصفصاف العارية ، اجد هذه الطبيعة البهية باردة هامدة ولا حياة فيها كأنها نقوش ملونة ، ولا استطيع ان اسكب في صدري من كل هذا المشهد الجميل ، ولا يستطيع فكري ان يحوّل الى قلبي ، قطرة واحدة من شعور الهناء والغبطة . واني لأجد الكائن البشري واقفا هنا متجها الى الله كبئر جافة ووعاء فارغ .

ولكم رميت بنفسي الى الارض وجثوت اصلي الى الله كي يمنحني دمعا ، كما يتضرع الفلاح الى ربه ويستسقي الغمام ، كلما تعطشت ارضه الى الماء وراى السماء ملبدة بالغيوم .

ولكني اشعر ، والهفاه ، ان الله لا يمنحنا الغيث والشمس بمثل هذه الادعية الملحفة . ويخيّل لي ان مبعث سعادتي في تلك الايام التي يمضي ذكرها ، اني كنت انتظر تجلياته الالهية بأناة وصبر ، وأتقبل ما يغدقه علي بالمنة والعرفان .

٨ تشرين الثاني

توجهت الي باللوم في اشفاق ولين ، لما ابديه من اسراف وغلو ، فأنا كثيرا ما اسمح لنفسي ان اتلهى بكأس فأنتهي بشرب الزجاجة كلها . قالت لي : « دع هذا يا ڤرتر وفكر بشرلوت . »

افكر ؟ !.. وهل ثمة حاجة ان تطلبي اليّ هذا ؟ ان افكر او لا افكر فأنت ماثلة ابدا في خيالي ، وكنت اليوم جالسا في المكان الذي نزلت فيه من العربة في المرة الاخيرة ...

وراحت تتحدث في اشياء اخرى لتمنع علي التوغل في الموضوع .

لم اعد سيد نفسي يا صديقي . انها لتفعل بي ما تشاء .

١٥ تشرين الثاني

اشكرك يا وليم لما تبديه نحوي من اهتمام حنون ، ولهذا الولاء الاكيد استشفه من نصائحك . ولكني التمس اليك .. دع هذا وانعم بهدوئك ، وخلني اشرب كأسي حتى الثمالة . فلا يزال بي من القوة ، رغم هذا الانهيار ، ما يكفيني لنهاية الشوط .

اني احترم الدين كما تعلم . اراه سندا ومتكأ لمن يسقط منهكا واجد فيه موردا عذبا للنفوس المتعطشة الصادية ، ولكن هل يستطيع وهل يجب ان يكون كذلك للناس جميعا ؟ تأمل هذا العالم الفسيح ، انك ترى آلافا من الناس لم يستطع الدين ان يمسح عن قلوبهم شيئا من الالم ، وترى آلافا غيرهم لا يستطيع لهم نفعا سواء بُشروا به او لم يبشروا . افحتم ان يستطيع

من اجلي شيئا ؟ الم يقل السيد المسيح نفسه : « ان الذي وهبني اياهم ابي السماوي سيكونون معي. » فاذا لم اكن من هؤلاء اليس معنى هذا ان الله يريد الاحتفاظ بي لنفسه ، كما يحدثني قلبي ...

رحماك يا وليم . لا تعط هذه الكلمات البريئة تفسيرا آخر ولا تحملها محمل العبث والهزل فأنا انما اعرض امامك روحي بجملتها ، والا لكنت آثرت الصمت ، فاني اكره ان ابدد الكلام عبثا في امور يجهلها كل الناس مثلي .

فليس من شأن هذا الانسان وقدره الا ان يحمل صليبه ويشرب كأس آلامه مترعة . واذا كانت هذه الكأس قد بدت لاله السماء اليمة مرة عندما حملها الى شفته البشرية ، فهل اتصنع القوة وادعي رياءً انها حلوة سائغة ؟ ولمَ يخجلني ان اصرح بهذا في اللحظة الرهيبة التي يتراوح فيها كياني كله بين الوجود والعدم ، ويلمع فيها ماضيّ كالبرق على هوة المستقبل المظلمة ، واشاهد كل ما حولي ينهار ويتداعى والعالم يتلاشى معي ويفنى ؟

اليست هذه الصرخة الشاكية : « الهي ، الهي ، لماذا تركتني ؟ » بنداء ذلك الكائن المرهق البائس ، وهو يتخبط بلا معين وسط جهود يهدرها عبثا للنهوض ؟ اوَ احمرّ لها خجلا واخشى اللحظة التي تنساب فيها من شفتيّ كأنها لم تصدر عن ذلك الذي يطوي السماء طي النقاب ؟

٢١ نيسان الثاني

ان شرلوت لاترى ولا تشعر بأنها تهيّء السم الذي يقضي علينا معا . واني لأعب كأس منيتي بنشوة ولذة ، من يدها .

ترى . ما تعني هذه النظرة الرحيمة العطوفة التي تتطلع اليّ بها احيانا وهذا التسامح تتقبل به مايبدر مني نتيجة لعاطفة ليس لي عليها من سلطان. ما معنى هذا الاشفاق والرثاء لآلامي ، استبينه بوضوح على جبينها ؟

لما اردت الانصراف امس مدت اليّ يدها وقالت : « وداعا ايها العزيز ڤرتر . » العزيز ڤرتر ! هذه اول مرة تلقبني فيها بالعزيز . والفرح الذي شعرت به قد تغلغل حتى مخ عظامي فأعدت العبارة على اذني مئة مرة . وفي المساء عندما اويت الى سريري واستسلمت لاحاديث النفس وهواجس الفكر هتفت فجأة : « ليلتك سعيدة يا عزيزي ڤرتر ! »

ولم املك ان ضحكت من نفسي .

٢٢ تشرين الثاني

لا استطيع ان اقول عندما اصلي : «احفظها لي يارب.» وكثيرا مايبدو لي على هذا الحال ، انها لي . ولا استطيع ان اسأله : « هبني اياها يالهي. » لانها ملك لغيري .

اني اتلاعب واهزء بآلامي . وإن اترك لنفسي العنان اتيت بسلسلة من الاستعارات والمفارقات .

٢٤ تشرين الثاني

انها تشعر بما اكابد . فقد اخترقت انظارها اليوم اعماق قلبي . لقيتها وحدها فلم انبس بكلمة ، وظلت تحدق فيّ النظر .

لم ار فيها ذلك الجمال الفاتن وتلك الوضاآت الذكية التي تحيط بجبينها : نظرات على اكثر من القوة ، كانت مسلطة علي مفعمة بالحنان والرأفة . لهفاه ! لماذا لم ارتم على قدميها ؟

لمَ لم اجرؤ على تطويق عنقها والجواب على نظراتها بألف قبلة ؟ وخفّت تعزف على البيان ، وترافقه بصوت ناعم حنون .

لم ار شفتيها قط على مثل هذه الفتنة والسحر . لكأنما كانت تتفتح بفتور ووهن لتلتهم الانغام المنبعثة من البيان ، تتردد في فمها صدى سماويا . اه ، لو يتاح لي ان اعبر لك عن هذا كما شعرت به . ولم استطع المقاومة طويلا فخفضت رأسي وهتفت مقسما: « ايتها الشفاه التي تحوم عليها ملائكة السماء ، لا ، لن اجازف فأطبع عليك قبلة قط . ومع هذا ، اريد.. اترى ، انه لحاجز كثيف يقوم بيني وبين نفسي .

ان ادنس ... هذه البراءة وهذا الطهر السماوي ! ثم اكفر عن جريمتي . جريمتي !

٢٦ تشرين الثاني

اقول لنفسي احيانا : ان هذا القدر القاسي لقدرك وحدك اذ لم يذق مخلوق ما ذقت من عذاب . فاذا ما قرأت لشاعر قديم ، خيل لي اني اقرأ في صفحات قلبي . الهي كم قدر لي ان اتعذب واشقى ! أكان لي فيمن تقدمني اشباه في الشقاء اذن ؟

٣٠ تشرين الثاني

كلا ، لن اثوب الى رشدي ابدا ، فحيثما توجهت اجد بعض المشاهد التي تذهب بلبّي .

واليوم . يا للانسانية ! ويا لقسوة القدر !

ذهبت الى ضفة النهر ساعة الغداء اذ لم يكن بي للاكل رغبة .

الطبيعة كلها من حولي قفر يباب كصحراء موحشة ، وريح الغرب تعصف من ناحية الجبل رطبة باردة ، والغيوم الرمادية الكثيفة تملأ شعاب الوادي . ولمحت عن بعد رجلا يرتدي ثوبا رثا اخضر ويسير منحنيا بين الصخور ، كأنه يبحث عن ازهار جبلية . ودنوت منه فالتفت لوقع خطاي ، فاذ بي ارى وجها غريبا معلما تبدو على سيمائه علائم الحزن العميق ، وينم عن نفس كريمة طيبة . وادركت من مظهره ان تدخلي لن يسيئه فسألته عما يبحث فأجاب : « افتش عن زهور ، ولا اجد شيئا . » فقلت له ضاحكا : « ذلك اننا في غير فصل الزهور . » ، فتقدم اليّ وقال : « الزهور كثيرة ، ففي حديقتي ورد كثير ونوعان من زهر العسل احدهما والدي ، وهي تنبت في يسر وسهولة كالعشب العادي ، وها انا ابحث منذ يومين فلا اجد منها شيئا ، وهنا في البرية تجدد انما ازهارا كثيرة صفراء وحمراء وزرقاء . وزهرة القنطاريون الصغيرة اللطيفة . على اني لا اجد من كل هذا شيئا . » ولمحت على وجهه بعض مظاهر البؤس فملت بالحديث حتى سألته عما يريد ان يفعل بهذه الزهور . فقال وقد تقلص وجهه عن ابتسامة غريبة ووضع اصبعه على فمه : « ان لم تخني قلت لك اني وعدت حبيبتي بباقة من الزهر . »

— « هذا جميل منك . »

— « لديها اشياء اخرى ! انها غنية . »

— « ولكنها مع ذلك مهتمة لزهورك . »

— « هه ... عندها حلي وتاج . »

— « وما اسم حبيبتك ؟ »

— « لو شاءت الجمعية العمومية ان تدفع لي لكنت اليوم رجلا آخر . اجل . لقد مضى علي زمن كنت فيه سعيدا ، اما اليوم فقد قضي الامر فأنا ... » ورفع الى السماء نظرة ندية معبرة .

— « اذن ، كنت سعيدا ؟ »

— « اواه . لكم اتمنى ان اعود ، كما كنت ، مرحا لعوبا كالسمكة في الماء . »

وسمعت صوت سيدة تنادي وهي تقترب منا : « هنري . هنري ! اين انت ؟ » لقد تحريت عنك في كل مكان فلم اجدك ، هلم للغداء . »

وسألتها وانا اتقدم اليها : « هل هو ولدك ؟ » فأجابت : « نعم ولدي المسكين .. ان الله قد منحني صليبا ثقيلا . »

— « وكم مضى عليه وهو على هذه الحال ؟ »

— « ستة اشهر في مثل هذا الهدوء ولله الحمد ، وسبقتها حالة من التوتر والهياج استمرت سنة كاملة قضاها مقيدا في مستشفى المجانين ، اما الآن فهو لا يؤذي احدا ، الا انه في شغل دائم مع الملوك والقياصرة . وكان ولدا وادعا يعينني على كسب القوت ، وكان خطه جميلا جدا وقد رأيناه يتحول فجأة الى انسان متأمل حالم ، وانه الآن كما ترى . ليتني استطيع

ان اقص عليك يا سيدي . . »

وقاطعت سيل كلامها الدافق وسألتها عما يقصد بالايام السعيدة الهانئة التي يلح في ذكرها . فأجابت وقد افترت عن ابتسامة اشفاق واسى : « وارحمتاه لهذا المسكين ، انه يقصد فترة الهيـاج التي قضاها في المستشفى وهو لا يعي ولا يحس شيئا . » ووقع كلامها من نفسي وقع الصاعقة فوضعت في يدها قطعة نقود وابتعدت عنها بخطى كبيرة ، وهتفت لنفسي وانا اندفع مسرعا نحو المدينة : « متى ، متى كنت سعيدا تمرح كالسمكة في الماء ؟ »

يا اله السماء ! هكذا قضيت على الانسان ودبرت امره بشكل لا يهنأ ولا يسعد فيه الا قبل ان يبلغ الرشد او بعد ان يفقده ؟

وارحمتاه لك ايها الشقي البائس !

ولكني احسدك واغبط لك جنونك وهذا الانهيار في حسك وملكات فكرك . انك تخرج في قلب الشتاء ، يحدوك الامل ان تجمع لملكتك زهرا ، ثم تحزن لانك لا تجد منه شيئا ، ولا تدري لمَ لا تجد . وانا ؟.. انا اخرج بلا امل ، والى غير ما قصد واعود كما ذهبت . انك لتتصور نفسك رجلا آخر لو رضيت الجمعية العمومية ان تدفع لك . الا طوبى لك ايها الانسان السعيد الذي يعزو شقاءه الى سبب دنيوي ، عثرة على الارض ، ولا يحس او يعي ان في قلبه المضطرب ودماغه المختل يكمن البؤس وتستقر العلة التي لا يملك لها دفعا ملوك الارض قاطبة . الا ليته يقضي يائسا ، ذلك الذي يهزء من مريض يتوخى البرء لاسقامه في سفر بعيد الى نبع للمياه المعدنية ، ولا يعدو ان يزيد في علته وسقمه . وتبا لمن

يزدري ذلك البائس المضطهد الذي يؤم القبر المقدس تخلصا من وخز ضميره المعذب وتهدئة لثـأئرة نفسه وآلامه ، فانه ليجد في كل خطوة يخطوها في هذه الطرق الوعرة التي تمزق قدميه ، قطرة بلسم تصب على جراحه . وانه ليأوي في المساء الى سريره فيشعر كأن قلبه قد تحرر من بعض الاثقـال التي ترهقه .

وانتم ! تسترخون على مقاعدكم الوثيرة ايهـا الثرثارون وتدعون هذا خطرات احلام واوهام .

اوهام !

ايها الرب الاله ! انت ترى دموعي . اكان لزاما ان تجعل للانسـان وقد خلقته يائسا معدما ، اخوة يعبثون بأفراحه ، وينهبون هذه الذرة من ايمانه فيك ؟

اذ ان اعتقـادنا بنفع الجذور الصحيـة ودموع الكرمة التي تسح في الربيع ، ليس الا ثقة منا وايمانا فيك .

ايها الاله الذي ينثر حولنا من عنـاصر الشفاء والعزاء ما نحتاجه كل حين .. ايهـا الاب الاله الذي لا اعرفه ، والذي كان يملأ في ما مضى كل جوانحي ، ثم اشـاح عني بوجهه ، ادعني اليك يا رب ، ولا تلزم الصمت طويلا ، فصمتك لن يوقف روحي الصادية .

واي والد يستفزه الغضب ان يرى ولدا له يرتمي بغتة على عنقـه ويصرخ : « هـا قد عدت اليك يا ابتِ فلا يحزنك ان اقطع سفرا كان يجب ان اتحمل اله الى نهاية الطريق ، اطاعة لك .

ان العالم هو ذاته ، في كل مكان عنـاء وعمل ، مكافأة ولذة . ولكن

ما يجديني كل هذا ؟ فليس يطيب لي ان اكون الا حيث انت .
الى قربك ، اريد ان انعم واشقى ، فهل تصد عنك ، ايها الاله السماوي الرحيم ، ابنك الضارع المتوسل؟

١ كانون الاول

وليم . ان الرجل الذي حدثتك عنه ، هـذا الشقي البائس كان يعمل كاتبا لدى والد شـرلوت ، وقد استبدت به عاطفة حب مشئوم نما سرا في قلبه وكاشف به شرلوت فكان سببا في طرده ، ومن ثم اورثه الجنون . ولك ان تقدّر ان استطعت وقع هذه الكلمات القليـلة الجافة واثرهـا في نفسي ، ومبلغ انهياري ويأسي وانا اسمعها من البير يقصها عليّ ببرود، يشبه ما قد تقابلها به لدى قراءتها !

٤ كانون الاول

رحمـاك يا وليم ، اترى ، لقد قضي علي ... فلن استطيع احتمال كل هذا طويلا .
كنت جالسا الى قربها اليوم ... جالسا ! وكانت تعزف على بيانهـا الحانا مختلفة ، بكل كل ما اعهده فيهـا من روعة التعبير وسحره ! ماذا اقول ؟ كانت اختها الصغيرة تلاعب دميتها على ركبتي، وترقرقت الدموع في عيني ، وانحنيت اتطلع الى خاتم الزواج في يدهـا فتساقطت دموعي . وانتقلت فجأة الى ذلك اللحن القديم فشعرت بنفحة عزاء تلج قلبي وتبعث فيّ ذكريات الماضي ، يوم سمعت هذا اللحن لاول مرة ، الايام الحزينة التي

تلت ، ثم العودة ، وهذه الاحزان والآمال الخادعة و ...

كنت اروح واجيء في الغرفة وقلبي ثائر مضطرم ، وقلت لهـا بحرارة : « ناشدتك الله ان تكفي ياشرلوت . »

وتوقفت عن العزف ثم حدقت فيّ النظر وقالت لي وهي تبتسم ابتسامة ادمت قلبي : « ڤرتر . انت مريض يا ڤرتر . وانك لتعاف احب الاطعمة اليك . فاذهب بالله وهدّىء من ثائرتك . »

وانتزعت نفسي منها و ...

الهي ! انت ترى حزني والمي ، فاجعل لشقائي حدا .

٦ كانون الاول

لشد ماتلاحقني هذه الصورة ، انها لتملأ في اليقظة والحلم شعاب روحي كلها ، هنا في الجبهة ، حيث تتركز قوة البصر ، ارى عينيها السوداوين ، كلا لا استطيع التعبير عن هـذا ، فاذا استسلمت للكرى استقرتا امامي وظلتا مفتحتين كالهاوية .

يا لهذا الانسان المغرور ، هذا النصف اله ! اما تخذله قواه تماما في ساعة الحاجة اليها ؟ وعندما يتذوق غاية افراحه ، او يغور في لجج احزانه ، الا يشعر هنا ايضا بحدوده الضيقة ويرتد الى الشعور بذاته ، الى هذا الاحساس الحزين بصغارته ، بينما هو يأمل ان ينصهر ويفنى في اللانهاية ؟

من الناشر الى القارئ

لشد ما كنا نود ، لو توفرت لدينا المعلومات الكافية عن ايام ڤرتر الاخيرة مكتوبة بيده ، فلا نقطع سلسلة الرسائل التي تركها لنا ، ونستعيض عنها بما نستقصيه على السماح من حوادثه وانبائه !

ولقد حرصنا على جمع التفاصيل الصحيحة من اكثر الناس دراية بوقائع قصته . والتفاصيل واحدة تتفق في ما بينها على ادق الظروف والمواقف ، ولم نجد تباينا وخلفا الا في طريقة الحكم على اخلاق وعواطف الاشخاص الذين لعبوا دورهم في القصة . فليس الا ان نسرد بأمانة ما توصلت اليه تحرياتنا الكثيرة ونضم اليها الرسائل التي تركها لنا ڤرتر المسكين دون ان نهمل منها شيئا ، مع العلم انه لمن الصعوبة معرفة الاسباب والبواعث الحقيقية في ابسط الوقائع والاعمال عندما يكون مصدرها اشخاص يخرجون عن خط المستوى العادي .

لقد مد النأس والحزن جذورا عميقة في نفس ڤرتر ، راحت تتغلغل وتنمو شيئا فشيئا حتى استبدت بسائر كيانه واختلت لها موازين قواه العقلية . وكان لهذه النار الداخلية المتأججة فيه اسوأ النتائج واظلمها اثرا ، فقد اشاعت الخور والوهن في ملكاته الفكرية ، وادت في النهاية الى انهيار روحي تتطلب مغالبته قدرا من العزيمة والقوة يفوق ما استلزمته جميع الآلام التي كافحها حتى الآن ، وبرحت به لواعج حبه فأودت بما تبقى له

من قوة الفكر وحدة الخاطر ، ولم يعد يبدي في المجتمع غير الحزن القاتم. وكان يزداد قسوة وتجنيا في احكامه . هذا على الاقل مايقوله اصدقاء البير فيدعون ان ڤرتر لم يحسن تقدير رجل فاضل وديع كالبير ، الذي راح يستمتع بسعادة طالما حلم بها وتمناها ، فلم يكن له من غاية بالتالي غير الحرص عليها والحفاظ عليها لمستقبل ايامه . وانّ لفرتر ان يفهم هذا وقد كان يبدد كل شيء في يومه ولا يحتفظ لمسائه بغير الالم والحرمان . كما انهم يدعون ان البير لم يتغير في مثل هذه الفترة القصيرة . وكان دائما نفس الرجل الذي امتدحه واجله ڤرتر في بدء تعارفهما ، وكان يفخر بزوجته ويحبها حبا فائقا ويرغب ان يجد كل انسان فيها اكمل امرأة في الوجود . فهل يلام اذا رفض ان يقتسم مع اي انسان كان، وليكن اطهر مايكون براءة قصد ، مثل هذا الكنز الثمين . وهم يعترفون ان البير كان يغادر البيت لدى مجيء ڤرتر . ولم يكن يفعل هذا نفرة من صديقه او كرها له بل لمجرد الشعور ان وجوده قد يضايق ڤرتر .

واصيب والد شرلوت بانحراف في صحته الزمه الفراش فبعث بمركبته يستقدم شرلوت فجاءت تلازم سريره . وكان يوما جميلا من ايام الشتاء والثلجة الاولى قد انهمرت بغزارة فكست الارض بحلة جديدة .

ولحق بها ڤرتر في صبيحة اليوم التالي ليصحبها في العودة ان لم يوافها البير . ولم يكن الجو الجميل قد لطف كثيرا من مزاجه ، كان يحس بحمل ثقيل يضغط على صدره وصور سوداء مرعبة تلاحقه ولا يعرف ذهنه غير التنقل بين الافكار القاتمة الممضة .

ولما كان يعيش ابدا غير راض عن نفسه ، كانت تبدو له حالة اصدقائه حرجة مضطربة ويخيل اليه انه قد افسد صفو العلاقات بين البير وامرأته فينحو على نفسه بتأنيب ولوم يشوبه بعض شعور الحقد الدفين نحو البير . وراحت افكاره تعالج في الطريق ، هذا الخاطر ، فيهتف بشيء من الغضب : « اترى ما بقي اذن من هذا الزواج المفعم بالحب الصميمي والوفاء والايمان المقيم .. انه لشعور الاكتفاء والشبع واللامبالاة ! الاتستأثر باهتمامه اتفه القضايا فتشغله عن هذه المرأة المعبودة ؟ هل يقدر سعادته حق قدرها ؟ أيدرك ما قيمة هذه المرأة ؟ »

« انها ملك له ! اجل . انها له ! »

« واني اعرف هذا وادركه ، كما ادرك غيره من الاشياء . وقد كنت احسبني الفت هذه الحقيقة فاذ بها تهيج بعد ، سعير غضبي ، ولسوف تجهز علي ! »

« وصداقته الخالصة ؟ اهي باقية على العهد ؟ الا يرى في تعلقي بشرلوت مساسا بحقه ، وفي رعايتي لها وانشغالي بها تأنيبا له خفيا ؟ »

« اجل ، اني لاراه واحس به ، لم يعد ينظر اليّ بارتياح . انه يتمنى بعدي فوجودي يثقل عليه . »

وكان يخفف قليلا من سيره المندفع ويقف كمن يود العودة . ولكنه استمر في سيره وهو نهبة لهذه الافكار والهواجس حتى وصل الى بيت نائب الحاكم ، كأنه قد دفع اليه على الرغم منه . ووجد البيت في ضجة وحركة فسأل عن شرلوت وابيها ، وجاءه اكبر الصبية يقول له ان كارثة قد حلت في وليم ، فقد وجد احد الفلاحين مقتولا .

ولم يلق الخبر من ڤرتر اهتماما كبيرا وذهب الى الصالون فوجد شرلوت تحاول ان تثني والدها المريض عن الذهاب لاجراء التحقيق في مكان الجريمة. وكان القاتل لا يزال مجهولا فقد وجدت جثة القتيل في الصباح امام باب المزرعة التي يعمل فيها . وكان ثمة شبهات تحوم حول احدهم فقد كان القتيل يعمل في خدمة ارملة كانت تستخدم قبله شابا آخر ترك العمل على اثر خلاف هام . واندفع ڤرتر بعد سماع هذه التفاصيل صارخا : « هل هذا ممكن ، يجب ان اذهب ، ليس بوسعي التخلف لحظة . » ثم انطلق يعدو الى وَلهِم ، وارتسمت في ذهنه ذكريات كثيرة ، ولم يخامره شك ان فاعل هذه الجريمة هو ذلك الفتى الذي تحدث اليه مرات واصبح عزيزا على قلبه . واحس ڤرتر بينما كان يمر بين اشجار الزيزفون في طريقه الى الحانة التي وضعت فيها الجثة باضطراب وحزن لرؤية هذا المكان ، وقد كان موضع حبه وايثاره . كانت عتبة الباب حيث كان الاولاد يلعبون من قبل ، قد تلطخت ببقع الدم ، ان الحب والاخلاص والامانة وهي اجمل عواطف الانسان قد انحطت الى درك العنف والقتل .

وكانت الاشجار الباسقة قد تعرت من اغصانها وتغطت بطبقة من الجليد . والسياج النضير الذي كان يكلل حائط المقبرة ويشكل قنطرة فوقها قد تعرى من سندسه الاخضر فأطلت حجارة القبور خلال اعواده ، مغطاة بالثلج . وكان اهل القرية قد تجمعوا حول الحانة ، فلما دنا منها سمع لغطا وحركة . وشوهد عن بعد زمرة من الرجال المسلحين فتعالى الصراخ من كل جانب : « لقد احضروا القاتل . » ولما تطلع اليه ڤرتر لم يبق لديه ريبة ، فهو ذلك القروي المسكين الذي هام بحب سيدته ، وقد شوهد قبل

ايام وهو نهبة لحزن قاتم ويأس دفين .

وتقدم اليه ڤرتر وقال له : « ماذا صنعت ايها الشقي ؟ » فأرسل اليه الفتى نظرات هادئة وظل صامتا لحظة ثم اجاب ببرود : « لن تنال احدا ، ولن يظفر بها احد . » واقتادوا الفتى الى الحانة ، وولى ڤرتر مسرعا .

وزعزعت هذه الصدمة العنيفة كيان صديقنا ڤرتر وانتزعته فجأة من حالة سويدائه ويأسه فتملكه اهتمام شديد لمصير الفتى ورغبة حارة في انقاذه . وكان يشعر بمبلغ شقائه ويرى قلة مسئوليته وجرمه رغم جنايته ، وانه ليعي قضيته بقلبه ، ويسبغ عليها من حنانه وعطفه ، حتى يرى بوسعه ان يحمل الناس على مجاراته واعتناق رأيه . واخذ يحتدم للدفاع عنه فتنثال وتتزاحم على شفتيه كلمات خطابه . وانطلق الى بيت الصيد وهو يردد في الطريق بصوت مسموع ما سيعرضه على نائب الحاكم في الموضوع . ولما دخل البهو لمح البير فعراه بعض الاضطراب ثم تمالك واخذ يبدي مطالعته بكثير من الحرارة والاندفاع .

وكان نائب الحاكم يهز رأسه خلال الخطاب يمنة ويسرة . ورغم ان ڤرتر قد ضمّن دفاعه المؤثر كل حرارة الاقتناع ، وكل ما يستطيعه انسان من قدرة للدفاع عن الآخرين ، فان الحاكم كما نتوقع ذلك بلا عناء ، لم يتأثر له كثيرا ، ولم يدع لڤرتر ان ينهي خطابه بل توجه اليه باللوم لانه يشمل برعايته رجلا قاتلا . وقال له : « ان القوانين في هذه الحالة تصبح عديمة الاثر ويضطرب حبل الامن ، واضاف انه لا يستطيع ان يفعل شيئا في مثل هذه القضية الخطيرة دون ان يتحمل اكبر المسئوليات ، وان الواجب يحتم عليه السير في القضية حسب الاصول القانونية .

ولم يستسلم ڤرتر ، وراح يلتمس منه ان يغض الطرف في حالة التمهيد لفرار الشاب فرفض الحاكم هـذا الطلب ايضا . واضطر ڤرتر ان يلزم الصمت فخرج متألما بعد ان ردد الحاكم على سمعه مرات : « كلا،ليس من يستطيع انقاذه . »

وندرك مبلغ تأثر ڤرتر والمه من بطاقة صغيرة وجدت بين اوراقه . ويبدو يقينا انها كتبت في اليوم نفسه : « ليس الى انقاذك من سبيل ايها الشقي . اني لأرى هذا جيدا ، ليس من يستطيع انقاذنا . »

وكان لما قاله البير امام نائب الحاكم في شأن القاتل اثره السيء في نفس ڤرتر فقد رأى فيه بعض الاشارة الى موقفه وعواطفه ، ورغم انه ادرك بعد ان فكر في الامر مليا ، ان صاحباه قد يكونا على حق في ما قالاه ، فقد كان الاقرار لهما بذلك مما يتجاوز حدود طاقته .

ونجد بين اوراقه بعض سطور تشير الى هـذا الحادث وقد تعبر عن عواطفه الصحيحـة نحو البير : « وما يجديني ان اقول واردد ، انه شهم طيب ، انه يمزق قلبي . كلا لا استطيع ان اكون منصفا عادلا معه . »

وكانت عشية لطيفة صحا فيهـا الجو وبدأ الثلج يذوب شيئا فشيئا ، فرأى البير وشرلوت ان يعودا الى المدينـة سيرا على الاقدام ، وتلفتت شرلوت في الطريق كأنها تفتقد صحبـة ڤرتر ، فأخذ البير يتحدث عنه فيلومه حينا ثم يحـاول تبرير سلوكه حينا آخر . وتعرض لذكر حبه المشئوم وود لو يجد سبيـلا الى اقصـائه حرصا على راحتـه وامنه . ثم قال : « اني اتمنى هذا من اجلنا ايضا . وارجو ان تعطي صلته بك وجهة اخرى ، وتجعـلي حدا لزياراته الكثيرة . فقد بات الناس يتنبهون لهـا

ويتقولون فيها . » ولم تقل شرلوت شيئا . وشعر البير بمعنى سلوكها فلم يعد يتحدث عن ڤرتر امامها ، واذا جاءت هي على ذكره اهمل الحديث او حول مجراه .

اما ڤرتر المسكين فقد كان سعيه لانقاذ القروي المسكين اشبه بالومضة الاخيرة لشعلة تنطفىء ، فارتد خائبا حزينا وعلى اشد مما كان انهيارا وخورا . واعتراه شيء من اليأس عندما علم بامكان دعوته للشهادة ضد القاتل ، بعد ان اعتصم هذا بالنفي والانكار . وجاشت بصدره ، وحركت كوامن المه الصعاب والمكاره التي لقيها في حياته العملية ، اكداره لدى السفير ، آماله وامانيه الخائبة ، وجراحه الدامية . ورأى في كل هذا مسوغا يدفع به الى الفراغ والتبطل ، ووجد نفسه محروما من اي بارقة ، او امكانية للعمل ، عاجزا عن مجابهة الحياة والامساك بها ، من اي طرف من اطرافها كما يقولون .

وهكذا بدأ ڤرتر ، وقد استسلم بكليته لافكاره السوداء واهوائه العاصفة ، واستغرقته صلاته المؤلمة الدائمة بذلك الكائن المعبود وقد عكر عليه صفو حياته الزوجية ، فشعر بقواه تتبدد بلا غاية او قصد ، وشخصه يذوي بلا امل ، هكذا بدأ ڤرتر يألف مع الايام فكرة مخيفة فاجعة ، ويقترب من نهايته .

وفي بعض ما ترك لنا من رسائل نثبتها هنا ، دليل لايدحض على مدى اضطرابه وهذيانه ومبلغ المه ومصارعته للحياة وقرفه منها .

١٢ كانون الاول

اني لأجد نفسي في حالة اولئك المساكين الذين كان يعتقد الناس ان روحا شريرة تتخبط في اجسادهم .

كثيرا ما تتملكني هذه الحالة فلا ادرك لها كنها ، ليست رغبة ، ولا هي الما او قلقا نفسيا ، بل ثورة وغضب داخلي مجهول يكاد يأخذ بخناقي ويمزق صدري . ويلح علي العذاب والالم فأحاول الهرب واهيم بنفسي، في دجى الليل ، بين المشاهد المخيفة في هذا الفصل ، عدو الانسان .

لم استطع ان احتجز نفسي عن الخروج امس فرأيت الجليد قد بدأ يذوب بغتة . وقيل لي ان النهر قد طغى وفاض ، والسواقي كلها تضخمت حتى وَلهِم ، وان الفيضان قد غمر واديَّ العزيز كله . وخرجت اعدو ، بعد الساعة الحادية عشرة ، وكان مشهدا رهيبا ، ان تتطلع من فوق قمة صخرة ، في ضوء القمر ، الى السيول الجارفة ، تكتسح الحقول والمروج والاسيجة وتغمر كل ما حولها ، وترى الشعاب المغمورة وقد تحولت الى بحر طام تعصف به الرياح الهوج . واطل القمر بعد ظلمة مطبقة فانبثق منه شعاع دافق مخيف انار من جديد الامواج المتدفقة المغمغمة تحت قدمي .

واستبدت بي رغبة ! وسرى في جسمي ارتعاش ! كنت واقفا هنا ، مبسوط الذراعين على شفا الهاوية ، اتحرق شوقا ان ارمي بنفسي .

ارمي بنفسي! وكنت اتيه شاردا في غمرة هذا الحلم اللذيذ ، ان اندفع الى اللجة واغيّب فيها عذابي والمي بصخب وضجة كالامواج .

لهفاه ! لم تسعفك القوة لترفع عن الارض قدمك وتضع لآلامك اجلا .

ولكني اشعر .. ان ساعتي لم تحن بعد !

اه يا صديقي ، لكم كنت اهب حياتي البشرية طائعا راضيا ، لو اتيح لي ان اقتحم السحب مع العاصفة ، فأمزق الغيوم واثير الامواج !

الا تضحي هذه المتع ابدا من حظ هـذا الانسان الذي يذوي اليوم في سجنه ؟

ولكم كان حزني شديدا عنـدما خفّضت ناظري الى موقع كنت قد جلست استريح فيه مع شرلوت في ظل صفصافة ، بعد نزهة لنا يوم صيف قائظ . وكان قد غمره السيل فما كدت اتبين الصفصافة والمروج الخضر .. في ضواحي بيت الصيد . لهفـاه كيف يقوّض السيل عشوشنا .

ووميض في خاطري قبس من نور المـاضي ، كما تشع في ذهن السجين احلام القطعان والمروج وامـاني الرفعة والمجد .

وكنت هنـا واقفا لا أريم . ولست اتهم نفسي ... فلدي الشجـاعة لاستقبال الموت ، وكان علي .. اني لاشبه بعجوز فانية تلتقط احطابها من عيدان السياج وتجمع خبزها من الاستجداء على الابواب ، لتمدد لحظة اخرى على الارض ، حياتها الحزينة البائسة .

ماهذا ياصديقي ؟ اني لأفزع من نفسي ! الم يكن حبي لها بالحب الطاهر الاخوي المقدس ؟ وهل شعرت لهـا في ما مضى برغبـة اثيمة تراود قلبي ؟ لست اود ان اقسم .. ولكن ماهذه الاحلام ؟ لقد صدق الذين عزوا هذا التناقض الغريب الى قوى متضاربة .

هذه الليلة ! وانا ارتجف لهذا التصريح ، كنت مطبقا عليها بذراعيّ ، اضمها بشدة الى صدري واغمر فمهـا الجميل المختلج ولها وحبا ، بمليون قبـلة

وعيناي تسبحان في سكرة عينيها .

الهي ؟ هل ارتكب اثما ان استعيد ذكرى هذه اللحظات المستعرة السعيدة ؟ شرلوت ، شرلوت ، لقد قضي علي .. حواسي مضطربة ، وملكات فكري منذ ثمانية ايام معطلة ، وعيناي مملوءتان بالدموع . ولست اشعر بهناء وراحة في اي مكان ، واجدني دائما في كل مكان .. لم اعد ارغب ولا اشتهي شيئا ، الا يجمل بي ان ارحل .

وكان عزم ڤرتر على ترك هذا العالم قد اشتد في هذه الآونة وتملك في نفسه ، فقد بدأ يجد في الموت ، منذ عودته الاخيرة الى شرلوت ، امنيته الوحيدة وموارده الاخير . الا انه آلى على نفسه الا يقصد اليه باندفاع وعنف ، والا يخطو هذه الخطوة الا بعد الاقتناع التام والطمأنينة الكاملة . ان شكوكه وتردده ، والحرب الداخلية التي قامت في نفسه ، تبدو لنا بوضوح في بعض سطور تركها ، ويغلب ان تكون مستهل كتاب لصديقه ، وهي بدون تاريخ : « حياتها ، ومصيرها ، واهتمامها لقدري ، لتستدر الدموع الاخيرة من دماغي المتحجر .

ليس الا ان نرفع الستار .. ونمر دونه ، فلمَ نرتعش ونتردد ؟ الأننا نجهل ما وراءه ، ولاننا ان رحنا لن نعود ابدا؟ ام انها مزية الفكر البشري يفترض الظلام والابهام حيث لا يدري على وجه التأكيد ، ماهنالك ..»

وألف ڤرتر شيئا فشيئا هذه الافكار المظلمة واضحت لديه مع الايام رفيقة انيسة حتى استقر عزمه بشكل لايقبل النقض . ودليلنا هذه الرسالة التي كتبها لصديقه ، وهي تحمل معاني التورية وتقبل وجهتي التأويل .

٢٠ كانون الاول

اشكر لك ياعزيزي وليم ولاءك وحسن ادراكك، فقد فهمت ما اردت قوله . اجل ، وانت مصيب ، فخير لي ان ارحل . ولكني لا ارى ان اعود اليكم كما اقترحت ، فاني ارغب على الاقل ان اقوم بجولة في البدء ، لا سيما ونحن نتوقع تصلب الجمد فتضحي الطرق سهلة سالكة . وقد سرني عزمك على المجيء اليّ ، ولكني ارجو ان تمهلني اسبوعين ، ثم تنتظر مني رسالة بعدها ، فلا ينبغي ان نقطف الثمار قبل نضجها ، وخمسة عشر يوما قبل او بعد تؤثر كثيرا .

قل لامي ان تصلي من اجلي وتمنحني الصفح عما سببته لها من اسى وحزن . ويبدو ان قد قدر لي في لوح الغيب ان اكون مصدر احزان واكدار لمن كان يجب ان اكون مبعث افراحهم .

وداعا يا صديقي الودود ولتغمرك السماء ببركتها .

ولا نحاول ان نصف ما كان يخالج قلب شرلوت في هذه الفترة ، وما كانت تشعر به نحو زوجها ونحو صديقها البائس ، وان كنا نستطيع ان نكوّن عنه فكرة لمعرفتنا بطباع شرلوت . فبوسع كل امرأة ذات نفس طيبة كريمة كنفس شرلوت ان تدرك وضعها وتعرف مبلغ عذابها والمها . ويبدو لنا مؤكدا انها اعتزمت ان تعمل كل ما في طاقتها لابعاد ڤرتر ، وانما كانت تتردد وتتئد رحمة واشفاقا .

فلقد كانت تقدّر ما يكلف ڤرتر هذا الهجر من عناء وجهد ، ان لم يتعد حدود طاقته ، الا انها الفت نفسها مضطرة ان تتخذ قرارا حاسما في هذا

الشأن . فقد لزم البير في هذا ما التزمته هي من صمت ، وكان يهمها ان تبرهن بسلوكها انها جديرة بالعواطف التي يبديها زوجها .

وفي اليوم الذي حرر فيه ڤرتر آخر كتاب لصديقه ، وكان يوم احد يقع قبل عيد الميلاد ، ذهب في المساء الى شرلوت فرآها وحدها منشغلة في اعداد الهدايا لاخوتها فتحدث عن فرح الاولاد (وعن الايام التي كنا نطير فيها من الغبطة) حين يفتح الباب وتظهر شجرة العيد مزينة بالشموع والسكاكر والتفاح . وقالت له شرلوت وهي تخفي ارتباكها بابتسامة لطيفة : « وانت يا ڤرتر ستكون لك هداياك والعابك ان غدوت عاقلا .. شمعة صغيرة .. وشيء آخر . » فقال لها : « وماتعنين بهذا ياشرلوت ، ان اغدو عاقلا ، وكيف ينبغي لي ان اكون ؟ » فقالت : « ليلة الخميس هي ليلة العيد وسيأتي ابي مع الاولاد ويأخذ كلّ ما يخصه من هدايا ، فتعال انت ايضا ، ولكن ليس قبل هذا الموعد . » ووجم ڤرتر . وتابعت شرلوت : « ارجو ان تفعل هذا من اجل راحتي وامني . كلا ، لا يمكن ان تستمر هذه الحال . » واشاح عنها بعينيه واخذ يسير في الغرفة بخطى واسعة وتغمغم شفتاه : « هذا لا يمكن ان يستمر ، هذا .. »

واحست شرلوت بوقع كلماتها الشديد على نفسه فحاولت ان تلهيه بالف سؤال . ولكنها لم تفلح ، وصاح : « لا . لا يا شرلوت لن اراك بعد اليوم ابدا . »

— « ولمَ يا ڤرتر ، بوسعك ان تراني دائما ، ولزام عليك ان تفعل ، ولكن ناشدتك الله ان تملك زمام امرك . اواه ، لمَ فطرت على مثل هذا الاندفاع والانطلاق الجامح المشتعل تلهب به كل ماتعلقه من حولك . »

وتناولت يده وقالت : « انضرع اليك يا ڤرتر ان تملك نفسك ، فلكم تستطيع مواهبك وما اوتيت من معارف ، ان تتيح لك من مباهج ومتع . كن رجلا واقطع صلة هذا الحب المشئوم بفتاة لا تملك لك من نفسها غير التأمي والاشفاق . » وتطلع اليها بنظرات قاتمة ، واخذت يده بين يديها وقالت : « ڤرتر ، لحظة واحدة من الهدوء يا ڤرتر ، الا تشعر انك تغالي وتنحرف ، وانك تسعى الى هلاكك بمحض رضاك ؟ لمَ يجب ان اكون انا بالذات يا ڤرتر ، وانا ملك رجل آخر . اني لأخشى ان تكون استحالة نوالي هي التي تضرم رغبتك بمثل هذا اللهيب . »

وسحب يده من يدها وحدّق فيها نظرات كئيبة وصاح : « هذا جميل ، جميل جدا ، وقد تكون ملاحظة لألبير . انها عميقة ! جد عميقة . » فاجابت شرلوت : « يستطيع كل احد ان يلحظها ، اليس في العالم كله اذن امرأة تستطيع ان تحقق اماني قلبك ، فاسع اليها يا ڤرتر وانا واثقة انك ستجدها . فمنذ زمن طويل وانا متألمة اشفق من اجلك واجلنا لهذه العزلة اليائسة تحيط بها نفسك . تشجع يا ڤرتر ، وارى ان القيام برحلة يفيدك بلا ريب ، فاسع الى فتاة تليق بحبك وعد الينا لنهنأ جميعا بنعمة الصداقة البريئة . » فاجاب ڤرتر بابتسامة مرة : « حري بنا ان نطبع هذه الخطبة ونوصي بها خيرا معلمي المدارس .. اه ، شرلوت . امنحيني فرصة اخرى ، وتنتهي الامور كما ينبغي . »

– « اذن لن تجيء يا ڤرتر قبل ليلة الميلاد . »

ودخل البير بينما كان ڤرتر يهم بالجواب فتبادلا التحية ببرود مثلج وطفقا يسيران في الغرفة جنبا الى جنب وعليهما مظاهر الارتباك . وتناول

ثرتر حديثا لا معنى له ثم توقف ، وفعل البير مثله ، ثم سأل شرلوت عن بعض شئون كان قد كلفها بها ، ولما علم بانها لم تقضها وجّه اليها بعض كلمات رآها ثرتر جافة وتكاد تكون قاسية فأراد الانصراف ولكنه لم يستطع وبقي على مثل هذا التردد حتى الساعة الثامنة ، وزاد انقباضه واضطرابه . ولما اقبلا يمدون السماط تناول عصاه وقبعته وهم بالذهاب فرجاه البير ان يبقى ، ولكنه لم ير في هذه الدعوة غير مجاملة عادية فشكر له ببرود وخرج .

ورجع الى البيت فرأى خادمه يشعل المصباح فأخذه من يده وصعد الى غرفته وراح يمشي بخطى كبيرة ويبكي ويجهش بالبكاء ويحدث نفسه بصوت مرتفع ولهجة محتدمة ثائرة . وانتهى ان ارتمى بنفسه على السرير دون ان ينضو ثيابه . ودخل عليه الخادم في الساعة الحادية عشرة ليسأله ان كان يريد ان يخلع حذاءه ، ففعل . وطلب اليه ثرتر الا يدخل الغرفة في الصباح قبل ان يدعوه .

وفي صبيحة الاثنين الواقع في ٢١ كانون الاول اخذ يكتب الى شرلوت هذه الرسالة ، وقد وجدت على مكتبه بعد موته فسلمت الى شرلوت . وسنثبتها هنا مقاطع ، كما يبدو انه قد كتبها : « انه لشيء مقرر ياشرلوت ، اريد ان اموت . وانا اكتب لك هذا ، بلا حماس او اندفاع عاطفي ، اكتبه هادئا مستقرا في صبيحة اليوم الذي اراك فيه لآخر مرة . »

« فعندما تقرأين كتابي ياحبيبتي ، يكون القبر قد ضم رفات هذا البائس الذي لم يجد ابهج ولا اسعد لقلبه من ان يتحدث اليك في ساعاته الاخيرة . لقد قضيت ليلة رهيبة يا شرلوت ، الا انها كانت مريحة طيبة ، فقد ثبتت

عزمي ، اريد ان اموت . »

« اي اسى ورعشة شعرت بها عندما غادرتك امس ! واي انقباض ! ولشد ما تشيع في نفسي الجمد والفزع ، هذه الحياة الكئيبة تذوي بي الى قربك وتفنى بلا بهجة ولا امل . »

« لم اكد اصل الى غرفتي حتى جثوت فاقد الوعي. الهي! الا تهبني لآخر مرة نعمة الدموع المرّة الملطفة ؟ »

« الاف المشاريع والافكار تصطخب في نفسي ثم تزول ولا يبقى غير فكرة واحدة وعزم لا يحول ، اريد ان اموت . » واستسلمتُ للكرى وفي الصباح ، في هدأة اليقظة وصفائها ، تبينت في اعماق قلبي هذا العزم الاكيد الثابت ، اريد ان اموت . ليست ببواعث يأس ، ولكنها القناعة الراسخة باني قد انهيت مهمتي ، واني اضحي نفسي من اجلك . »

« اجل يا شرلوت ، ولمَ اخفي عنك ، لا بد ان يقضي احد الثلاثة واريده ان يكون انا . اه يا حبيبتي ، كثيرا ما راودتني هذه الفكرة الرهيبة ، ووجلت برفق قلبي الممزق .. ان اقتل زوجك .. انت .. انا ! ليكن هذا اذن ! »

« فاذا تسنمت ذرى الجبل في يوم صيف جميل، ففكري فيّ ياشرلوت ، واذكري كم مرة اجتزت هذا الوادي ، ثم تطلّعي صوب المقبرة ، ولترى عيناك كيف يموّج النسيم ، على ضوء آخر شعاع ترسله الشمس الغاربة ، الاعشاب النامية على قبري .. »

« كنت هادئا في مستهل كتابي ، الا ان هذه الصور اثارت شجني فبكيت كالطفل . »

ودعا ڤرتر خادمه حوالي الساعة العاشرة وقال له وهو يرتدي ثيابه ، انه سيقوم برحلة تستغرق بضعة ايام فعليه ان ينظف له ملابسه ويعد حقائبه . وامره ان يسدد ما عليه لبعض التجار ويسترد الكتب المعارة ، وان يعطي مقدما حصة شهرين للفقراء الذين يأخذون منه الصدقة كل اسبوع . وطلب ان يأتيه بالطعام الى غرفته . وذهب بعد ان تناول غداءه لزيارة نائب الحاكم فلم يجده ، واخذ يتنزه في الحديقة وعلى سيمائه علائم التفكير وكان يريد ان يؤلب في خاطره الذكريات التي تزيد من اشجانه .

على ان الاولاد لم يدعوا له هدوءه طويلا فخفوا اليه قفزا وعدوا وقالوا له : « اذا جاء الغد ، ويوم بعده ، والغد الذي يليه ، اخذنا من شرلوت هدايا عيد الميلاد . » ثم عرضوا له الغرائب والاعاجيب التي يمنيهم بها خيالهم الوثاب ، فصاح ڤرتر : « غدا ، ويوم بعده ، وغد يليه ! » وضمهم اليه بحنان وكان يهم بمغادرتهم عندما اراد صغيرهم ان يسر شيئا في اذنه ، وقال له : « ان اخوته الكبار قد اعدوا خطبا جميلة ليوم العيد ، وهي خطب طويلة ، واحد منها لبابا ، وواحد لالبير وشرلوت ، وواحد للسيد ڤرتر . وانهم سيقدمونها في صبيحة يوم العيد . »

وارهقته هذه الكلمات لوعة واسى واعطى كلا منهم بعض النقود وامتطى جواده وحملهم التحيات الى ابيهم والدموع تجول في عينيه .

ورجع الى البيت نحو الساعة الخامسة وطلب من الخادمة ان توقد النار وتحييها حتى الليل . واوصى الخادم ان يضع كتبه وامتعته ويرتب ثيابه في الحقائب . ويبدو انه كتب في هذه الفترة المقطع التالي ، من آخر رسائله الى شرلوت : « انك لا تتوقعين مجيئي ، تحسبينني اطيع ولا اراك

الا ليلة الميلاد . شرلوت ! اليوم او ابدا ! اما ليلة العيد فستمسكين هذا الكتاب بيديك فترتعشين وتبلليه بالدموع .. واني لأريده . الا ينبغي لك ان تفعلي يا شرلوت ؟

« اه . لشد ما انا سعيد بما اتخذت من عزم ! »

اما شرلوث فقد كانت في حالة جد حزينة . لقد احست في آخر حديث لها مع ڤرتر بما يقتضيه ابعاده عنها من مشقة وجهد . كانت تدرك اكثر منها في السابق ، ما يكلف ڤرتر انفصاله عنها من عذاب والم .

وكانت قد ذكرت عرضا امام زوجها ان ڤرتر لن يأت قبل ليلة العيد . وذهب البير على جواده لينهي قضية له لدى احد الحكام في الجوار على ان يعود في اليوم التالي وبقيت شرلوت وحدها . ولم يكن حولها احد من اخوتها ، فاستسلمت بكليتها الى افكارها المضنية تحوم بها حول وضعها الحاضر ومستقبلها . لقد الفت نفسها مرتبطة لمدى الحياة الى رجل تعرف مبلغ حبه واخلاصه وتبادله الحب من كل جوارحها ، حتى لكأن السماء قد الفت طباع هذا الزوج الوادعة ، لاسعاد امرأة شريفة طيبة . وكانت تشعر بما يستطيع ان يكون مثل هذا الزوج لها ولعائلتها . ولكن ڤرتر ايضا كان قد اصبح عزيزا على قلبها ، فقد توطدت بينهما صلات الود منذ اللحظة الاولى . وولدت علاقتها الطويلة من الاواصر الصميمية ما ترك في قلبها انطباعات لا تمحى ، فقد اعتادت ان تشاركه افكارها وكل خوالج قلبها ، وكان هجره يهددها بفراغ لا تستطيع ملئه .

اواه ! لشد ما تكون سعيدة ، لو استطاعت في هذه اللحظة ان تجعل منه شقيقا لها ! او ان تزوجه من احدى صديقاتها ، او ان تأمل باعادة اسباب

التفاهم والود بينه وبين البير الى سابق عهدها .

واستعرضت في خاطرها كل صديقاتها فوجدت في كل منهن بعض النقص ولم تبد لها واحدة جديرة به . وانتهت بها هذه التأملات والافكار الى الشعور بعمق، دون ان تجرؤ على الاعتراف به صراحة ، ان رغبة قلبها الخفية هي ان تحتفظ بڤرتر لنفسها ، ولكنها كانت تهمس لذاتها وتردد : انها لا تستطيع ولا ينبغي لها ان تفعل .

وتأثرت نفسها الصفيّة الطاهرة والتي لم تكن تعرف للكآبة والحزن سبيلا بطابع هذه السويداء التي لا ترى وجهة بينة للسعادة ، فانقبض قلبها وغشت عينيها سحابة رمداء .

وكانت الساعة السادسة والنصف عندما سمعت ڤرتر يصعد الدرج وعرفت لثوها وقع اقدامه وسمته يسأل عنها فشعرت بقلبها يخفق له بشدة ، وقد يكون لاول مرة ..

وكان بودها لو قيل له ان شرلوت غير موجودة . فلما دخل ڤرتر تملكها اضطراب وذهول وصاحت بشيء من الوله : « انك لم تف بما وعدت . » فأجاب : « لم اعد بشيء .. »

— « كان يجب على الاقل ان تستجيب لتوسلاتي ، لقد طلبته اليك من اجل راحتنا وراحتك . »

ولم تكن تدري ما تقول وتفعل عندما رأت ان تدعو اثنتين من صديقاتها ، كي لا تبقى وحدها مع ڤرتر .

ووضع ڤرتر بعض كتب احضرها وطلب كتبا اخرى . وكانت شرلوت ترجو تارة قدوم صديقاتها وتتمنى حينا الا يأتوا ، عندما دخلت الخادمة

وقالت لها : « لقد اعتذرن عن الحضور . » وخطر لها ان تطلب الى الفتاة ان تظل وتعمل في الغرفة المجاورة ولكنها لم تفعل .

وكان ڤرتر يسير في الغرفة بخطى كبيرة فنهضت الى البيان واخذت تعزف قطعة صغيرة ، ولكن انامله عصت فجاءت تجلس بهدوء ووقار قرب ڤرتر الذي اخذ مكانه المعهود على الاريكة .

وسألته شرلوت : « اليس لديك ما تقرأه ؟ » ولم يكن يحمل شيئا فقالت : « لدي هنا في الدرج ترجمتك لبعض اناشيد اوسيان ، لم يتح لي قراءتها بعد ، وكنت ارجو دائما سماعها منك فما سنحت الفرصة . » وابتسم ڤرتر ونهض يبحث عن مخطوطه . واخذته رعشة لما مسه بيده وامتلأت عيناه بالدموع ، الا انه تمالك وقرأ :

* * *

ها انت تتلألئين في الغرب يا نجمة الليل الوليد ،
تتقدمين بعزّة وجلال فوق الربى ،
ويتهادى جبينك الذهبي فوق الغمام .
عمّ يبحث طرفك الساجي في قفار الخلنج ؟
لقد سكنت الرياح العاصفة ،
ولم تزل دمدمة السيل تبلغ اسماعنا من بعيد .
الامواج الصاخبة تهدر وتتلاشى على اقدام الصخور ،
وحشرات المساء تهوّم في الحقول زمرا ،
اي شيء تنظرين ايتها النجمة البهيّة ؟
ان ثغرك يفتر مبتسما وتولين جذلانة فرحة ،
تحيط بك الامواج المرحة الراقصة ، وتبلل شعرك الجميل .

وداعا ايها النور الهادىء الحنون .
وانت ، تجلي لنا ياروح اوسيان بضيائك المهيب .

انها لتبدو بمجالي ضيائها وزهوها ،
فأرى صحبي الموتى يتجمعون في لورا ،
كما كانوا يفعلون في الايام الخوالي .
جاء فنجال كعمود من الضباب الندي ، والتف ابطاله حوله ،
اولئك هم الشعراء الجوّالة اولو الاناشيد الخالدة .
اوليس ذو الشعر الفضي ، رينو الجليل المهيب ،
إلبين المغني المحبوب ، وانت يا مينونا الحلوة ، الشاكية .
لشد ما تغيرتم ايها الرفاق بعد اعياد سِلمى .
ايام كنا نتبارى للظفر باكاليل الغناء ،
كما تتدافع تباعا نسمات الربيع ،
لتطوي الاعشاب الطويلة على رءوس الربى .

وبدت مينونا الجميلة تتقدم في موكب بهائها ،
نظراتها منكسرة ، وعيناها مخضلتان بالدمع ،
وشعرها الغزير المرسل يعبث به النسيم الشارد من اعالي الربوة .
فاذا ارتفع صوتها الشادي الحنون ،
انقبضت نفوس الابطال وغشاها الحزن ،
فلطالما رأوا قبر سلجار ،
والمقر المظلم الذي يضم البيضاء كُلمى .

تركت كلمى وحيدة على الرابية الموحشة ،
لا يؤنسها غير صوتها الشاكي الحزين ،
فقد وعدها سلجار بالمجيء .
والليل ارخى سدوله ، وسلجار لم يأت .
اسمعوا صوت كلمى الجالسة وحدها على الربوة .

كلمى

جاء الليل وانا وحدي تائهة فوق الربوة ،
وقد هاجمتها العواصف الهوج .
الرياح تقصف في الجبال ، والسيل يهدر مدويا بين الصخور ،
وليس من كوخ اتقي به المطر والعاصفة الصاخبة على الربوة .
انبثق من بين غلائلك ايها القمر ، واظهري يا نجوم الليل ،
وليهدني قبس من نور ، الى حيث يستريح حبيبي من متاعب الصيد ،
وقوسه المرخاة الى جانبه ، وكلابه تلهث من حوله .
أأظل جالسة وحدي على الصخرة ، فوق السيول المزبدة ؟
العاصفة تزأر والسيل يهدر وانا لا اسمع صوت حبيبي .

لمَ يبطىء حبيبي سلجار ؟ هل نسي موعده ؟
هذه هي الصخرة ، وتلك هي الشجرة ، وها هو السيل يدوي .
سلجار ، وعدتني ان تكون هنا في مطلع الليل .
ويلاه ! اين ضل حبيبي ؟ كنت انوي ان افر واذهب معه ،

واهجر والدي واخي الصلفين المتكبرين ،
فعائلتانا في عداء قديم ،
اما نحن فلسنا اعداء يا سلجار .

احبسي انفاسك لحظة ايتها الريح ، وقف ايها السيل !
وليتجاوب صوتي عبر الوادي ، ويسمعني حبيبي .
حبيبي سلجار ! انا التي تناديك ،
هاك الشجرة والصخرة ، سلجار اني هنا ، فلمَ لا تأتي ؟
ها قد لاح البدر ، وتلألأت الامواج في الوادي ،
وابيضّت الصخور على سفوح الهضاب ،
ولكني لا المحه على القمة ، ولا ارى كلابه معانقة قدومه .
أأظل هنا وحيدة ؟
ولكن ! من الراقدان هناك ، فوق اشجار الخلنج ؟
حبيبي ؟ اخي ؟ ردا عليّ يا خليلي . انهما لايجيبان .
اواه ! لقد قضيا وصبغ رماحهما نجيع القتال ،
فلشد ما يكتوي قلبي جوى وحزنا .
اخي ! اخي ! لمَ قتلت حبيبي سلجار ؟
سلجار لمَ قتلت اخي ؟ كلا كما كان عزيزا على قلبي .
كنت جميلا يا اخي ، معلما بين الف من ابطال الجبل ،
وكان حبيبي رهيبا في ساحة الوغى .
اجيبا ندائي واسمعا صوتي يا حبيبيّ . واهفاه !

لقد سكتا الى الابد ، واضحى صدرهما باردا كأديم الارض .

حدثيني يا ارواح الموتى ، من اعالي الصخرة الجاثمة فوق الوادي ،
ومن قمة الجبل العاصف ، حدثيني فلن ارتجف فرقا ،
اين ذهبت تلتمسين الراحة ، وفي اي المغاور اجدك ؟
اني لااسمع صوتا ولا همسا ، ولا تحمل اليّ الريح جواب الموتى .
اني انتظر الصباح وحدي ، في غمرة المي ،
والدمع ينهمر من عينيّ .
احفروا القبر يا اصدقاء الموتى ،
ولا تهملوا التراب حتى تأتي كلمى .
ان حياتي تفنى وتتلاشى كحلم ،
وقد سبقني احبتي ، فهل اتخلف عنهم !
هنا الى جانب السيل المتدفق من قلب الصخرة ،
اريد ان اثوي مع صحبي .
فاذا خيم الليل على الربوة ،
وتطاوت الرياح فوق اشجار الخلنج ،
انبثقت روحي ، في مهب العاصفة تشكو موت الاحبة .
وسيسمع الصياد صوتي ، من كوخه المجلل بالاغصان ،
فيرتاع له ثم يأنس اليه .
لانه سيكون عذبا رخيما في بكاء الاحبة .

كانت تلك اغنيتك يامينونا ، يا ابنة طرمان الحلوة .

ان دموعنا تسيل لوعة واسى لكلمى ، وتظلم نفوسنا كمدا وحزنا .

واطل اولين بقيثارته فاسمعنا نشيد إلبين .
وكان صوت إلبين رخيما عذبا ،
وكانت روح رينو شعاعا من نار .
كلاهما يسكن اليوم بيوت الموتى الضيقة ،
وتلاشى صوتها فلنْ يسمع بعد اليوم في سِلمى ،
وكان اولين ، قبل مصرع البطلين ، راجعا من الصيد ذات يوم ،
فسمعهما يتناوبان الغناء فوق الرابية ،
وكان صوتهما شجيا حزينا في رثاء موراد سيد الابطال .
لقد كانت روح موراد كروح فنجال ، وسيفه كسيف اوسكار ،
ولكنه سقط صريعا فندبه ابوه وبكته اخته ،
بكته مينونا شقيقة البطل موراد .
ولما اخذ اولين يغني ويعزف على قيثارته ،
توارت مينونا كالقمر في المغرب ، يتوقع قرب العاصفة ،
فيخفي راسه الجميل بين السحب .
وانطلقت انامي على القيثارة ترافق اولين في رثاء الموتى .

رينو

هدأت ثائرة الريح وكفّ الغيث ،
وصفت قبة السماء وانقشعت الغيوم ،

واستضاءت الهضبة بآخر شعاع من نور الشمس الغاربة .
النهر يجري من الجبل احمر قانيا ، ويغيب في الوادي ،
حلوة رخيمة نغماتك ايها النهر ،
واحلى منها صوت البين عندما يغني لحنا حزينا .
لقد احنت راسه السنون ، وقرح البكاء عينيه الغائرتين .
البين ! ايها الشادي العظيم .
مالك على الربوة الحرساء المقفرة ،
تئن كقصف الريح في الغابة ،
وتنتحب كالموج على الساحل البعيد ؟

البين

انا ابكي يا رينو حزنا على الموتى ، وانشد رثاءً لسكان القبور .
انك رشيق وسيم ايها الفتى فوق الربوة ،
جميل بين ابناء الخلنج ،
ولكنك ستسقط صريعا كما سقط موورار ،
وتعلق على الحائط قوسك المرخاة ،
ويجلس على قبرك الصحب الحزانى ،
وتنساك الربى .

كنت رشيقا يا موورار كالسنجاب فوق الهضاب .
رهيبا كالبرق يتوهج في السماء ليلا ،

وكان غضبك كالزوبعة ،
وسيفك في الوغى كاللمع فوق اشجار الخلنج ،
وصوتك اشبه بالسيل المتدفق في الغابة بعد الغيث ،
وقصف الرعود المدوّية فوق الهضاب البعيدة ،
وكان الكثيرون يسقطون صرعى يمينك فتلتهمهم شعلة غضبك .
فاذا عدت من ساحة الوغى ، كان صوتك وديعا حليما ،
ووجهك شبيها بالشمس بعد العاصفة ، والقمر في الليلة الساجية .
واضحى صدرك ساكنا كالبحيرة في هدأة الريح .
فما اضيق الان مثواك يا موورار ، وما اشد ظلمته .
بثلاث خطوات اقيس قبرك .
واربعة احجار تعلوها الحشائش الندية ،
هي كل قصرك المنيف يا موورار العظيم ،
وشجرة معراة من اغصانها ، وبعض اعشاب تتلوى تحت يد الريح ،
هي كل مابقي ليدل عين الصياد الى قبر موورار القدير .
ليس لك ام تبكيك ، ولا حبيبة تسكب عليك الدمع ،
فقد قضت تلك التي وهبتك الحياة ، وذوت ابنة مورجلان .

من العجوز السائر متوكئا على عصاه ؟
من ذا الذي شيبت هامته السنون وضرجت عينيه الدموع ؟
انه ابوك يا موورار ، والدك انت وحدك .
ولكم جاءته انباؤك في الوغى .

لقد سمع باجاد موراز ، اواه !
لمَ قدر له ان يسمع نبأ سقوطه ؟
ابكِ ، ابكِ يا والد موراز ،
ولكن ولدك لن يستمع الى صوتك ولن يستيقظ لندائك ،
فنوم الموتى عميق ثقيل ، ووسائدهم غائرة في الثرى .
لهفاه ! متى ينبثق نهار القبور ويستصرخ النائم : افق .

وداعا يا انبل الرجال ، وداعا ايها المحارب العظيم ،
فلن تراك بعد اليوم ساحات الوغى ،
ولن تبرق الغابة المظلمة بسناحسامك .
انك لم تترك لك ولدا ، ولكن الاغاني ستخلد اسمك ،
فتسمع الاجيال الآتية انباء مجدك ، ويعرفون موراز .

وساد المحاربين الوجوم والحزن ،
ونفث ارمين زفرات اليمة محرقة ،
فقد ذكره هذا النشيد بموت ابن له ،
وعادت به الذكرى الى ايام الصبا .
وكان الى جانبه كارمور امير جلمالا فقال له :
« لمَ هذا النحيب يا ارمين ، اهنا مجال البكاء ؟
أليست الموسيقى لصهر النفوس وايقاد جذوتها ؟
ان الضباب الخفيف يرتفع فوق البحيرة ،
ويتساقط رذاذا على الوادي فتندى له الزهور ،

فاذا علت الشمس في الضحى ، تبدد الضباب وانتعشت الزهور ،
فما بالك مستسلما لمثل هذا الحزن يا ارمين ،
وانت الحاكم على جرْما ، المحاطة بالامواج . »

ارمين

نعم انا شاك حزين ، وحق لي الحزن والاسى .
انك لم تفقد لك ولدا يا كارمور ،
ولم تفجع بابنة ريانة الصبا فاتنة الجمال ،
ففتاك الشجاع كوجار يرفل بحلة الحياة ،
ومعه زوجته اميرة ، اجمل النساء .
ان فروع دوحتك حيّة تزهو يا كارمور ،
اما ارمين فهو الاخير في ارومته .
ان مثواكِ مظلم قاتم يا دورا !
وسباتك عميق في جوف الثرى !
فمتى ، متى تهبين باغانيك الشجيّة وصوتك الحزين ؟
هبي يا رياح الخريف ، واعصفي فوق اشجار الحلنج ،
وازبدي يا سيول الغاب ،
ازئري ايتها الزوابع فوق رءوس السنديان .
وسر بين الغيوم الممزقة ايها القمر ،
احسر عن وجهك الشاحب ثم اختف ،

وذكرني بالليلة الرهيبة التي قضى فيها ولديّ ،
عندما سقط ارندال القوي .
وانطفأت شعلة العزيزة دورا .

دورا ، كنت جميلة يا ابنتي كالبدر على مرتفعات فيرا ،
بيضاء ناصعة كذرات الثلج المنهمر ،
رقيقة حلوة كنسمات الصباح .
وكان قوسك صلبا قويا يا ولدي ارندال ،
وسهامك سديدة سريعة .
وكان طرفك كالغيوم التي تزحم الامواج ،
وترسك كشهاب من نار وسط الزوبعة .

وجاء ارمار فارس الوغى ، يخطب دورا ويلتمس حبها .
فاستجابت له وفرح اصدقاؤها واستخفهم الامل .
ولكن ايرات ابن ادجال استشاط حقدا وغضبا ،
كان اخوه قد صرع بيد ارمار .
لقد جاء متنكرا بزي ملاح تقدمت به السن ،
وصبغ شعره المشيب ، فكلل محياه الأمن والوقار .
وكان زورقه يتهادى جميلا فوق الامواج .
وتقدم من دورا وقال لها :
« يا ابنة ارمين المحبوبة ، يا اجمل العذارى ،
هناك على الصخرة قرب الشاطىء ،

ينتظر ارمار حبيبته دورا ،
وقد جئت اعبر بك اليه الامواج المتدافعة . »
ورافقته دورا وراحت تنادي ارمار ،
فلم يجبها غير صدى الصخرة :
« ارمار ، حبيبي لمَ تعذب قلبي ؟
اصغ اليّ يا ابن ارنات ، دورا هي التي تناديك . »
اما ايرات الخائن فقد ولى نحو الشاطىء ضاحكا .
ورفعت دورا صوتها تستغيث بأبيها واخيها :
« ارندال ! ارمين ! الا يأتي احدكم لينقذ عزيزته دورا ؟ »
وتجاوب صوتها عبر البحر ،
وكان ارندال يهبط الربوة موقرا بغانم صيده ،
قوسه في يده ، وسهامه تصر في جنبه ،
ومن حوله خمسة كلاب سوداء للصيد ،
فرأى الغر الاحمق ايرات على الشاطىء ،
فامسك به وشد وثاق يديه الى خصره .
وراح ايرات الموثق يملأ الفضاء صراخا وانينا .
ودفع ارندال بالزورق الى اليم وانطلق الى دورا .
وظهر ارمار فجأة فسدد القوس في ثورة غضبه ،
وانطلق السهم ، فاصابك في القلب يا ارندال .
وقضيت يا ولدي بالنبلة المهيّأة لايرات .

ولما وصل الزورق الى الصخرة ،
سقط ارندال ولفظ نفسه .
وجرى على قدميك دم اخيك يا دورا .
فلشد ما اكتويت جوى وحزنا .
وتحطم الزورق فابتلعته الامواج ،
واندفع ارمار الى البحر يريد انقاذ حبيبته او يموت .
وتهبط الجبل فجأة ريح هوجاء عاتية ،
تثور لها الامواج فيغرق ارمار ويختفي اثره .
وكنت اسمع شكاة ابنتي وصراخها اليائس ،
وهي وحيدة على الصخرة الجرداء تعصف بها الامواج .
وكان صراخها حادا متواصلا ، وابوها لايملك لها عونا !
ومكثت على الشاطىء ليلي ،
وكنت المحها على نور القمر الضئيل ،
واسمع صراخها طوال الليل .
وكانت الرياح تعصف والغيث ينهمر سيولا جارفة .
وخفت صوت دورا قبيل انبثاق الصبح ،
وتلاشى كلهاث نسيم المساء بين اعشاب الصخور .
وانهكها الحزن والاسى فقضت ، وخلفتني وحيدا .
وزالت قوتي في الحروب ، واندثرت كبريائي كوالد .
وعندما تنحدر الزوابع من ذرى الجبل ،
وتثير الامواج ريح الشمال ،

اجلس الى الشاطىء الصاخب واتطلع الى الصخرة الرهيبة .
وعندما يلوح البدر في السماء ،
كثيرا ما المح طيفي ولديّ ، بين الظلمة والنور ،
يسيران معا في موكب حزين .

وتقاطر من عيني شرلوت سيل من الدمع واسى قلبها المضني وقطع قراءة ڤرتر فرمى بالاوراق جانبا وتناول يد شرلوت وبكى بكاءً مرا .

وكانت شرلوت متكئة على يدها الاخرى تغطي وجهها بمنديلها . وكان انفعالهما شديدا مريعا فقد وجدا في ما كتبه القدر لابطال اوسيان صورة لقدرهما . وامتزجت دموعهما لهذا الشعور المشترك ، والتصقت عينا ڤرتر وشفتاه بذراع شرلوت فارتعشت كمن مسه لهب . وارادت ان تبتعد فقيدها الاشفاق والاسى كأنما اثقلتها كتلة من رصاص ، وحاولت وهي تكاد تختنق ان تملك نفسها ثم اجهشت بالبكاء ورجت ڤرتر بنغمة سماوية ان يكمل قراءته . وكان ڤرتر يرتجف وقلبه يكاد ينفطر فقرأ بصوت مختلج :

« لمَ توقظيني يا انفاس الربيع ؟
هذه نفحاتك الحلوة تناجيني بحنان :
«اني محملة بالندى ، اغمر لك الارض بطل السماء.»
ولكن وقت ذبولي قد ازف ،
واوشكت ان تهب العاصفة التي تعبث بأوراقي .
وغدا يأتي المسافر ،

يأتي ذلك الذي عرفني في فتوتي وبهائي ،
وتتطلع عيناه في ما حوله يبحث عني فلا يجدني . »

وهوت هذه الكلمات كالمطرقة على كاهل ڤرتر فناء بها صدره المرهق وارتمى على قدمي شرلوت وهو في اشد حالات الوهن واليأس ، وامسك بيدها ومر بها ضاغطا على عينيه وجبينه . وكأنما احست شرلوت ، بحدس ، ومض في قلبها ، بما اعتزمه من امر مفزع رهيب ، فاضطربت حواسها واخذت يديه فضغطتهما على صدرها وانحنت عليه بحنان ووله ، والتقى خداهما الملتهبان .. وغاب عن حولهما العالم .

واخذها فرتر بين ذراعيه وضمها الى صدره واطبق منها لا على شفتيها الواجفتين بقبل محرقة عاصفة .

واشاحت عنه وهي تتمتم بصوت مختنق : ڤرتر ! ڤرتر ! وتحاول بيد ضعيفة موهنة ان تزيحه عن صدرها ، ثم زادت بلهجة تنم عن اشرف الاخلاق وانبل العواطف : ڤرتر ! ولم يستطع المقاومة فتركها تفلت من ذراعيه وارتمى امامها على الارض كمن فقد رشده . وانتزعت نفسها منه وهي ترتجف وقالت له بصوت يتهدج هياما وغضبا : « انها آخر مرة يا ڤرتر ! فلن تراني ابدا . »

ثم القت عليه نظرة مفعمة بالحب وعدت تحتجز نفسها في الحجرة المجاورة . ومد اليها ڤرتر ذراعيه ، دون ان يجرؤ على ايقافها . وكان ممددا على الارض ورأسه مسند الى الاريكة ، وظل على هذا الوضع نحوا من نصف ساعة ، حتى اعادته الى وعيه حركة الخادم لجاءت تمد السماط . ونهض يتمشى في الغرفة جيئة وذهابا فلما الفى نفسه وحيدا اقترب من باب

الحجرة وهمس بصوت خافت : « شرلوت ! كلمة اخرى يا شرلوت . كلمة وداع . »

وظلت صامتة وهو يرجو ويتضرع ، ثم انتزع نفسه عن الباب وهو يصيح : « وداعا يا شرلوت ، وداعا الى الابد . »

وسار الى باب المدينة وكان الحراس قد الفوا رؤيته فتركوه وشأنه . وكانت السماء راكفة تنثر ثلجا مذابا ، وظل يسير هائما حتى الساعة الحادية عشرة فلما عاد الى البيت لحظ خادمه انه بغير قبعة ، فلم يجرؤ ان ينبهه الى ذلك وساعده في خلع ثيابه المبللة .

وقد وجدت قبعته فيما بعد على صخرة تتفرع من الجبل وتنحدر الى قلب الوادي . وعجب له الناس كيف استطاع ارتقاء هذه الصخرة في مثل تلك الليلة الممطرة الحالكة السواد .

وأوى الى فراشه ونام مدة طويلة . وفي اليوم التالي رآه خادمه يكتب عندما استدعاه ليحضر له القهوة ، وقد زاد هذه الفقرة على رسالة شرلوت :

« انها اذن آخر مرة ! آخر مرة افتح فيها عينيّ . لهفاه ! لن تستمتعا بعد اليوم برؤية الشمس ، فالضباب القاتم والغيوم الكثيفة تحجبها عنا . اجل ! ولك ان تحزني وتتشحي بالسواد ايتها الطبيعة فابنك المحب وصديقك الوفي قد قارب نهايته .

انه لشعور ليس له مثيل ياشرلوت ، الا ان يشبه حلما مضطربا غامضا ، ان نقول لانفسنا : « هذا يومي الاخير ! الاخير يا شرلوت ! وليس لدي فكرة عن هذه الكلمة ، الاخير ! »

الست اليوم في كامل قوتي ! وغدا امدد ، بلا حياة في جوف الثرى .

الموت ! ما معنى الموت ؟ اترين يا شرلوت ، اننا نحلم عندما نتحدث عن الموت . رأيت كثيرا من الناس يموتون ، ولكن الانسان محدود المدارك لا يفقه لبدايته ونهاية وجوده معنى .

اني ما ازال حيا ، لك ولنفسي ايتها الحبيبة ، وبعد لحظات تفصلنا يد الموت .. وتفرق بيننا ابد الدهر !

كلا ، كلا ياشرلوت .. كيف يقدّر لي ان افنى ؟ وكيف تفنين انت ؟ فنحن احياء ، اجل .. وما معنى الفناء ؟ انها لكلمة اخرى ، نغم فارغ لا يفقه كنهه قلبي .

أأموت يا شرلوت ويطويني الثرى في ركن ضيق مظلم بارد ؟

كان لي صديقة توفاها الله وكانت سندا وعزاء لي في طفولتي الباهتة المحرومة من العزاء . وسرت في موكبها ووقفت فوق الحفرة ، ورأيتهم ينزلون النعش ، وسمعت صرير الحبال ترخى وتشد ، والدفعة الاولى من التراب تنهال فوق الجدث فينبعث صوتها حادا اصما ، ويليه صوت اكثر فأكثر صمما حتى يغيّب الجدث الثرى . فجثوت الى الارض وقد استبد بي الهم واضطربت نفسي غما وجزعا وشعرت باحشائي تتمزق . ولم اكن افقه شيئا عن منشأي ومعادي ، فالموت والقبر كلمات لا ادرك لها معنى .

اه ! عفوا ، عفوا يا ملاكي ! فامس ! . . كان يجب ان يكون آخر عهدي بالحياة . فلاول مرة يلج قلبي هذا الشعور بفرح خالص لاحد له ولا يشوبه شك ولا ريب ، انها تحبني ، تحبني ! وما تزال تحترق على شفتي تلك النار المقدسة التي انفجرت حمما من شفتيك ، وعبيق هذه النسمات المتلهبة يتقد بعد في حنايا قلبي . غفرانك ! غفرانك يا شرلوت ! لقد كنت

اعلم انك تحبينني ، عرفته من نظراتك الاولى المفعمة بالحنان ، عندما تصافحنا لاول مرة فشددت على يدي . الا اني كنت استسلم لشكوكي القاتلة كلما نأيت عنك ، او رأيت البير الى قربك .

اتذكرين يا شرلوت الازهار التي بعثت بها اليّ يوم ذلك الاجتماع الممل ، اذ لم تستطيعي ان توجهي الي كلمة او تمدّي لي يدك اصافحها ؟ اه ! لقد ظللت نصف الليل جائيا امام تلك الازهار ، فقد كانت تحمل اليّ طابع حبك . ولكن هذه الانطباعات تمحى وتزول مع الاسف ، كما يزول من قلب المؤمن شعوره برحمة ربه ، وقد تجلت له بنقوش مرئية في صور الاولياء القديسين . كل هذا زائل فان يا شرلوت ، ولكن الازل نفسه لا يستطيع ان يطفىء لهب النشوة التي تذوقتها على شفتيك امس ، والتي ما ازال احسها في ذاتي بعد .

انها تحبني ! وقد طوقها ذراعاي واختلجت هذه الشفاه على شفتيها واضطرب فمي على فمها .. انها لي ! انت لي يا شرلوت حتى الازل ! وما يهم ان كان البير زوجا لك ؟ زوجك ! انه لقب لهذا العالم فحسب . وفي هذا العالم وحده ارتكب اثما اذ احبك واشتهي انتزاعك لو استطعت من ذراعيه الى ذراعي .

خطيئة ! فلتكن خطيئتي ، فقد تحملت وزرها ، وتذوقتها في غمرة نشواتها السماوية . لقد تنسمت فيها اريج الحياة وسكبت منها قوة في قلبي ، ومنذ تلك اللحظة انت لي ، لي يا شرلوت !

اني سأرحل قبلك ، فالتقي بأبي ، ابيك ، وابثه الشكوى ويعزيني حتى يوم قدومك ، وعندها اطير الى لقائك وامتلكك ، ونظل متحدين امام الخالق

الازلي في عناقات وقبل لا تنتهي ابدا . انا لا احلم ولا اهذي ، فعلى مقربة من قبري ارى الاشياء اكثر وضوحا ، فسنبعث احياء ، ونلتقي ، وسأسعى الى امك يا شرلوت وهي صورتك المثلى فاجتمع بها واكشف لها خفايا صدري .

ونحو الساعة الحادية عشرة من المساء ، سأل ڤرتر خادمه اذا كان البير قد عاد ، فأجاب الخادم نعم ، اذ كان قد شاهد جواده ، فأعطاه ڤرتر كتابا مفتوحا لالبير تضمن هذه الكلمات : « هل تتفضل باعارتي غدارتيك لسفرة انوي القيام بها ، وداعا . »

اما شرلوت المسكينة فلم تنم ليلتها الا غرارا ، فان ما كانت تخشاه اضحى امرا واقعا ، وتحققت مخاوفها بشكل لم تكن تتوقعه ، ان دمها الصافي الهادىء في جريانه ليختبط الآن في اضطراب محموم ، والعواطف المتناقضة تمزق قلبها الطيّب .

ايكون لظى عناق ڤرتر هذا الذي تحسه يضطرم في صدرها ؟ السخط على ما كان من تماديه واجترائه ، ام هي نتيجة مقارنتها بين وضعها المؤلم وماضي ايامها البريئة المفعمة ثقة واملا ؟ فكيف تقابل زوجها وتعترف له بما لا تستطيع ان تعترف به لنفسها ؟ لقد اختلفت وزوجها منذ امد طويل في الحكم على موقف ڤرتر ، ولزم كل منهما الصمت . فهل تكون اول من يخترق نطاق هذا الصمت لتنقل الى زوجها خبر هذا الحدث الطارىء . لقد كانت تخشى ان يكون لزيارة ڤرتر في ذاتها اثر سيء في زوجها ، فما يكون حاله لو عرف نتيجتها المشئومة ؟ أكانت تود حقا ان يقرأ بجلاء ووضوح في صفحات قلبها فيرى ذلك المشهد على ضوئه الحقيقي ويحكم فيه بصفاء وتجرد؟

وهي لم تعتد من ناحية ثانية ولم ترد ان تكتم مرة عن هذا الزوج شيئا من خوالج قلبها ، وقد كانت صريحة معه دوما ، وشفّافة كالبلور .

وارهقت نفسها هذه الهواجس واوقعتها في ارتبـــاك قاس مضن . وكانت افكارها تحوم ابدا حول ڤرتر الذي هلك من اجلها . انها لاتستطيع ان تتركه ، على ان فصم هذه العلاقة بينهما اضحى واجبا محتما ، بينما ترى ان ڤرتر يفقد كل شيء بفقدها .

وعلى الرغم من ان اضطراب فكرها لم يكن يسمح لهـا ان ترى بوضوح ، فقد كانت تحس بمبلغ ما يثقل كاهلها هذا الخلف والتنـابذ بين البير وڤرتر ، هذين الشابين الذكيين الطيبين ، وقد اخذا لاختلاف خفي في عواطفهما ، يلوذان بالصمت ويفكر كل منهما بحقه وخطل رفيقه .

وقد اشتد بينهما التنافر شيئا فشيئا حتى لم يعد ممكنا في الوقت العصيب ان تحل العقدة ويسود بينهما الوئام . فلو ان الثقة عادت فقربتهما ، وتجدد في قلبيهما باعث الود والتسامح ، لـكان ممكننا بعد انقاذ ڤرتر المسكين .

وزاد في اضطرابها امر آخر فان ڤرتر كما نرى ذلك في رسائله ، لم يخف قط رغبته بمغادرة هذا العالم . ولطالما حارب فيه البير هذه النزعة التي كثيرا ما جرى حديثها بين شرلوت وزوجها .

وكان البير لفرط كرهه واستنكاره للانتحار كثيرا ما يبدي في شيء من الحدة اللاذعة ، الغريبة عن طبعه انه لا يؤمن بعزم ڤرتر هذا . وكان يسمح لنفسه ببعض التهكم في الموضوع حتى ان شرلوت تأثرت بهذا الرأي ، فكان يدخل الى قلبهـا الطمأنينة بعض الحين ويبدد عن خيالهـا الصور

القاتمة الرهيبة ، ولكنها لم تكن تفضي الى البير بشيء من هذه المخاوف التي تنتابها .

ووصل البير فخفّت اليه شرلوت في عجلة يشوبها بعض الارتباك ، ولم يكن منشرح الصدر فهو لم يستطع انجاز اعماله . لقد وجد في نائب الحاكم رجلا شكسا مماحكا ، وزادت وعورة الطرق في تعكير مزاجه . وسألها عما اذا كان قد حدث شيء او جاءته رسائل اثناء غيابه فأسرعت تجيبه ان ڤرتر جاء مساء الامس وانها وضعت له بعض الملفات والرسائل في غرفته .

وذهب البير الى مكتبه وبقيت شرلوت وحدها . وكان لعودة هذا الرجل الذي تجله وتحبه اثر طيب في قلبها ، واعاد الطمأنينة الى نفسها ذكر ما تلقاه من مكارمه وحبه وبراءة نفسه فشعرت برغبة خفية تدفعها الى اللحاق به فأخذت نسيجها وذهبت الى غرفته كما اعتادت ان تفعل . وكان مشغولا بفض رسائله وقراءتها ، وبدا ان بعض هذه الرسائل لم يبعث فيه ارتياحا ، وألقت عليه شرلوت بعض الاسئلة فأجاب عليها باقتضاب وعمد الى الكتابة .

وظلا هكذا نحوا من ساعة وشرلوت تزداد اكتئابا وحزنا ، كانت تشعر كم يصعب عليها ان تكاشف زوجها بما يثقل قلبها ، حتى لو كان اطيب ما يكون مزاجا ، واستبد بها حزن قاتم وغرقت في سويداء أليمة زاد في شدتها الحرص على اخفائها وكفكفة دمعها .

وكان ظهور خادم ڤرتر في هذه البرهة مما زاد في قلقها واضطرابها . وتقدم من البير ببطاقة صغيرة ، فالتفت الى امرأته بهدوء بعد قراءتها وقال لها ببرود : « اعطيه الغدارتين . » واضاف وهو يتطلع الى الخادم

« اتمنى له سفرا سعيدا . » وكان لهذا وقع الصاعقة على شرلوت ، وحاولت النهوض فلم تقو .

ولم تكن تعرف مايجري في داخلها ، وتقدمت اخيرا متثاقلة الى الحائط فتناولت الغدارتين بيد مرتجفة ونفضت عنهما الغبار ووقفت مترددة حيرى لولا نظرة تساؤل من البير دفعت بها ان تسلم الغدارتين الى الخادم دون ان تنبس بكلمة . وعندما خرج بهما اخذت شغلها وانزوت في غرفتها وهي نهبة لاضطراب غامض شديد لا تدرك كنهه .

وكان قلبها يحدثها بهول مفزع فتود حينا لو ترتمي على اقدام زوجها وتبوح له بمشهد الامس وتكشف له عن خطيئتها وهواجسها ، ولا تجد في هذا حينا آخر ، مايمكن ان يفضي الى شيء ، اذ لاترى انها تستطيع ان تقنع البير بالذهاب الى ڤرتر .

وكانت المائدة قد اعدت ، ودخلت صديقة لشرلوت في طلب حاجة ، فأبقياها للعشاء وكان وجودها مما جعل حديث المائدة سائغا مقبولا ، فأخذا بالكلام والنقاش وسرد الاخبار وغاب عنهما الوضع الراهن بعض الشيء .

ودخل الخادم بالغدارتين على ڤرتر فتناولهما بفرح واندفاع عندما علم ان شرلوت هي التي اعطته اياهما ، وطلب خبزا وخمرا وقال لخادمه ان يذهب للعشاء وراح يكتب :

« لقد مستهما يداك ونفضت عنهما الغبار ، اني لاغمرهما بقبلاتي . انك تؤيدين عزمي يا ملاك السماء ! تقدمين لي هذا السلاح بنفسك ، ولطالما وددت ان اتجرع من يديك كأس ميتي . اواه ! اني اتناولهما من يدك حقا ! ولكم سألت خادمي ، كنت ترتجفين وانت تعطيهما ، ولم تقولي

وداعا ! والهفاه ، لم تقولي وداعا ! اتكونين قد اغلقت قلبك دوني من اجل تلك اللحظة التي ربطتني بك الى الابد ؟

شرلوت ! ان اجيال الاجيال تمر وتنصرم ولا يعفو اثر هـذا الانطباع من قلبي . واني لأشعر انك لا تستطيعين ان تبادلي بالكره هـذا الذي يتحرق لك بمثل هذا السعير .

وامر ڤرتر خادمه بعد الغداء ان ينهي حزم حقائبه ، ومزق بعض الاوراق وخرج لوفاء بعض ديون صغيرة وعاد الى البيت . ثم ذهب الى بستان الكونت رغم المطر المنهمر ، وتنزه طويلا في تلك الضواحي ، وعاد عند هبوط الليل وكتب : « وليم ، لقد شاهدت الغابات والحقول والسماء لآخر مرة .

وداعا وغفرانا يا امي الحنون الطيبة .

وانت فعزّها ايها الصديق ! وليغمرك الله ببركته . ان شئوني كلها جاهزة ، وداعا . »

« لقد اسأت جزاءك يا البير ، ولكنك ستغفر لي ، فقد عكرت صفو بيتك وخلقت بينكما الريبة والشك . وداعا ، فسأجعل لكل هذا نهاية ، ولعل موتي يجعلكما سعيدين ! البير ! البير ! يجب ان تسعد هذا الملاك . ولتحل عليك بركة الله . »

وراح ڤرتر في المساء يتحرى بعض اوراقه فمزق قسما منها ورمى به في الموقد ، وغلف بعض الرسائل الموجهة الى وليم وفيها ابحاث وخواطر قصيرة اطلعنا على بعضها .

ونحو الساعة العاشرة القى في النار حطبا كثيرا ، ثم طلب من خادمه زجاجة من النبيذ وامره بالذهاب الى حجرته ، وكانت تقع مع غرف اهل الدار في ناحية منعزلة ، بعيدا عن مسكن ڤرتر . واستلقى الخادم على سريره دون ان ينضو ثيابه استعدادا لليقظة المبكرة فقد قال له سيده ان خيول البريد تغدو على الباب في السادسة صباحا .

في الحادية عشرة

كل ما حولي ساكن هادىء ، ونفسي آمنة مطمئنة !

شكرا لك يا الهي فقد منحتني الحرارة والقوة في هذه اللحظات الاخيرة .

اني اقترب من النافذة ايتها الحبيبة فأتبين بعد ، خلال الغيوم الممزقة العاصفة ، بعض النجوم المتناثرة في هذه السماء الازلية .

لا ، لن تهوي ايتها النجوم ! فالاله السرمدي يضمك الى صدره ، كما يضمني انا ايضا .

اني اشاهد بنات نعش وهي اجمل كواكب السماء تألقا وفتنة . وكنت اجدها امامي كلما بارحتك في الليل ، واية نشوات كانت تتملكني وانا اتأملها !

كم مرة رفعت اليها يدي اشدها ، كرمز وبناء مقدس ، على الغبطة والسعادة التي كنت انعم بها بجنبك ، وحتى ..

اواه ! شرلوت ، اي شيء لايثير ذكرك في خاطري ، الست محاطا بك ؟ الم اختلس بشراهة طفل الفكهة هنية لمستها فقدستها يدك الطاهرة .

ايتها الصورة الحبيبة !

اني اتركها لك يا شرلوت ، وانا شدك لها المعزة والاكرام فقد غمرتها بآلاف الاف القبل وكنت احييها كلما دخلت غرفتي او غادرتها .

لقد رجوت والدك ببطاقة صغيرة ان يحمي جثماني ويكلأه ، ففي آخر المقبرة ، نحو الزاوية التي تشرف على الحقول شجرتان من الزيزفون ، هناك اود ان اثوي واظفر بالراحة .

انه يستطيع ان يفعل ذلك ، وسيفعله من اجل صديقه ، فاشفعي لديه رجائي . ولم اكن لأطمع من تقاة المسيحيين ان يرتضوا جثة هذا البائس الى جوارهم . اواه ! كان بودي لو ادفن الى جانب الطريق او في وادٍ منعزل ، فاذا مر بجدثي الكاهن واللاوي استعاذا بالله ورفعا ايديهما الى السماء شاكرين ، وذرف السامري دمعة على قبري .

هات ، يا شرلوت ! اني لأتناول بيد ثابتة الكأس الباردة الرهيبة التي انجرع منها سكرة الموت ! انت تقدمينها لي ، فلن اتردد . هكذا اذن تتحقق رغائبي وامانيي حياتي ! وهذا ما تفضي اليه كل آمالي ، كلها كلها ، ان اتقدم بهذا الفتور لأقرع ابواب الموت النحاسية !

آه يا شرلوت ! لو سعدت بالموت من اجلك ، لو ضحيت بنفسي في سبيلك ، لو استطعت بموتي ، ان انيلك الامن والدعة وسعادة الحياة ، اذن لمتّ فرحا مسرورا .

وا اسفاه ! لم يُقدّر لغير نخبة ممتازة من البشر ان يضحّوا بدمهم من اجل ذويهم ، فيوقدون بموتهم شعلة حياة جديدة في صدر من يحبون .

اريد ان اوارى وانا بهذه الثياب التي البسها فقد لمستهـــا وقدستها ، وقد رجوت اباك ان يحقق لي هذا الرجاء ايضا . ان روحي تحلق فوق الضريح ، فلست اريد ان يبحث احد في جيوبي .

وتلك العقدة الوردية التي كانت تزين صدرك يوم رأيتك لاول مرة بين اطفـالك (اواه ! قبليهم عني الف قبلة واروي لهم قصة صديقهم البائس ، اني لأرى هؤلاء الاحبة يتزاحمون من حولي ، آه لشد ما تعلقت بك منـذ اللحظة الاولى وشعرت باني لا استطيع الانفصـال عنك) ، تلك العقدة ، ستدفن معي يا شرلوت . لشد ما كنت التهم هذه الاشياء بحرص ونهم .

وا اسفاه ! لم يكن يخطر لي قط ان تقودني هذه الطريق الى هنا ! ..

كوني هادئة يا شرلوت . الا ناشدتك الله ، كوني هادئة !

انها محشوتان ... والسـاعة .. تدق نصف الليل . فلتكن اذن ، مشيئتك يا رب !

شرلوت ! وداعا شرلوت ، وداعا .

رأى احد الجيران وميض البارود وسمع الطلقة ولكنه لم يسمع ضجة بعدها ، فلم يأبه للأمر ، وفي اليوم التالي ، حوالي الساعة السادسة ، دخل الخادم الغرفة وفي يده المصبـاح فوجد سيده ممددا على الارض ورأى الغدارة والدم ، فناداه وجهد لينهضه فلم يسمع منه جوابا . ولكنه كان يزفر بعد ، فأسرع الى الطبيب والبير ، وسمعت شرلوت طرق الباب فعرتها هزة سرت في سائر جسمها ونهضا معا فاستمعا الى الخادم ينقل اليهما الخبر المحزن وهو

يبكي وينتحب . وسقطت شرلوت على قدمي البير مغمى عليها . ولما وصل الطبيب لقي ڤرتر البائس مشرفا على الموت. وكان نبضه مايزال يتحرك الا ان اطرافه كلها كانت مشلولة .

فقد اطلق الرصاص فوق العين اليمنى فتطاير قسم من دماغه ، ولكن الطبيب لم يهمل شيئا ، ففصد ذراعه وسال الدم ، وكان البائس ما يزال يتنفس .

وكان يبدو من الدم المتناثر على مسند كرسيه ، انه اطلق الرصاص وهو جالس امام مكتبه فسقط، ثم دار في تشنجه واختباطه حول الكرسي، فاستقر ممددا على ظهره بلا حراك ، قرب النافذة. وكان في لباسه الكامل ، منتعلا حذاءه ويرتدي سترة زرقاء وصدارا اصفر . وسرى النبأ فهاج له من في البيت والجوار ثم المدينة بأسرها .

وسجي ڤرتر على السرير وعصب جبينه . وكان وجهه قد اتسم بطابع الموت ولم يعد يتحرك اي عضو فيه . ولكن رئتيه كانتا تزفران بشكل مفزع يشتد حينا ويخفت ، والناس من حوله ينتظرون في كل لحظة ان يصعد النفس الاخير .

ولم يكن قد شرب سوى كأس واحدة من النبيذ ، وكانت رواية اميليا جالوتي (*) مفتوحة على مكتبه .

اما ذهول البير ويأس شرلوت فليس للتعبير عنهما من سبيل. وخف الحاكم الشيخ متأثرا مضطربا فعانق الميت وسكب فوقه العبرات . ووصل في

(*) درامة ل : Lessing

اثره ، سيرا على الاقدام ، اكبر ولديه فتهالكا الى جانب السرير وهما نهبة لحزن والم عميق ، وقبلا وجه صديقهما ويديه .

اما الصبي البكر وكان ڤرتر يؤثره بحبه فقد الصق فمه بشفتي ڤرتر ولم ينفصل عنه حتى لفظ نفسه ، فرفعوه عنه قسرا .

وقضى ڤرتر قبيل الظهر وكان وجود الحاكم وما اتخذه من اجراء باعثا على انتشار النبأ وتجمع الناس . وحوالي الساعة الحادية عشرة من الليل قام الحاكم الشيخ بدفن صديقه في المكان الذي اختاره لنفسه ، وسار مع اولاده وراء النعش .

اما البير فلم يقو على السير ، وقد خشي على حياة شرلوت .

وحمل النعش بعض العمال ، ولم يرافقه احد من رجال الدين .

تمت

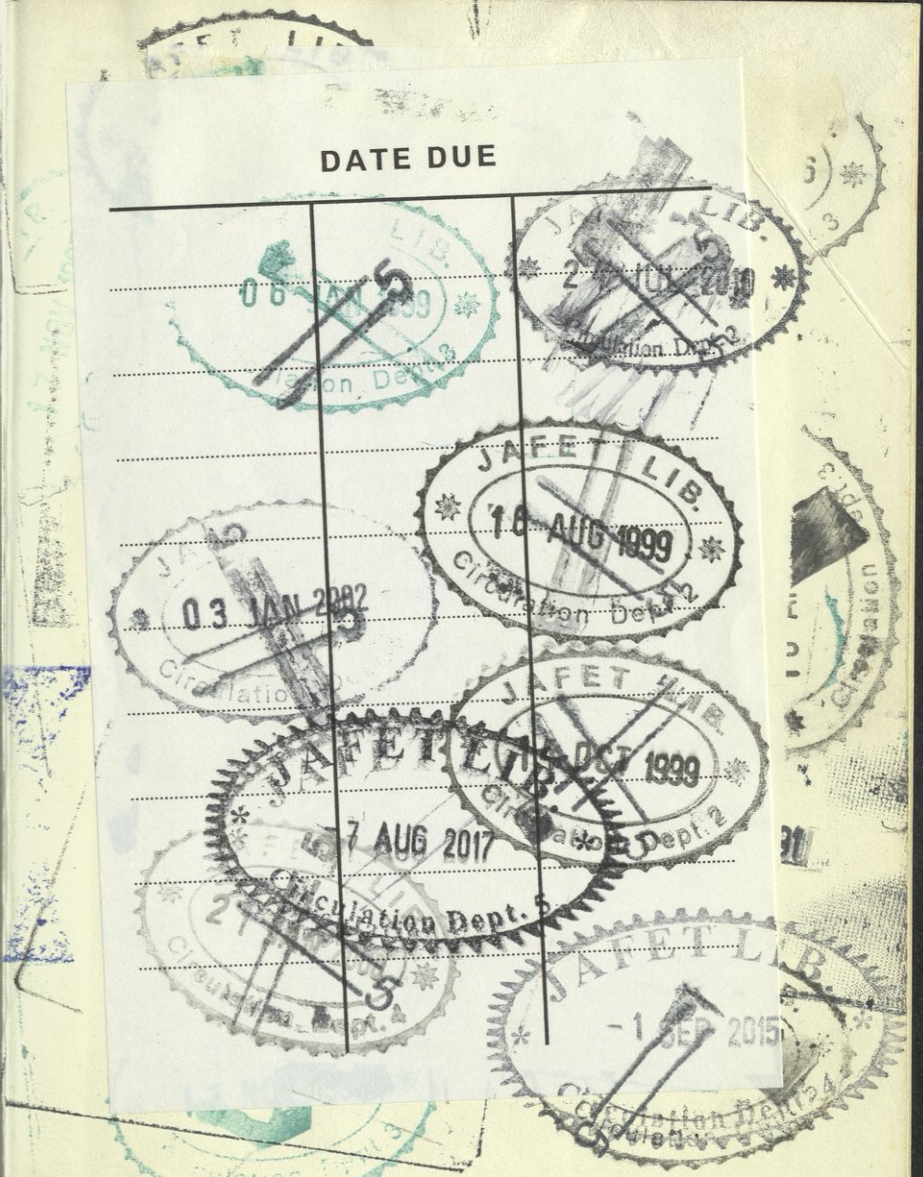
DATE DUE
JAFET LIB.
16 AUG 1999
Circulation Dept. 2
03 JAN 2002
7 AUG 2017
Circulation Dept. 5
1 DEC 2015

[redacted]
ورد ،نخلة
آلام فرنزر
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031848